حقيقة الإسلام

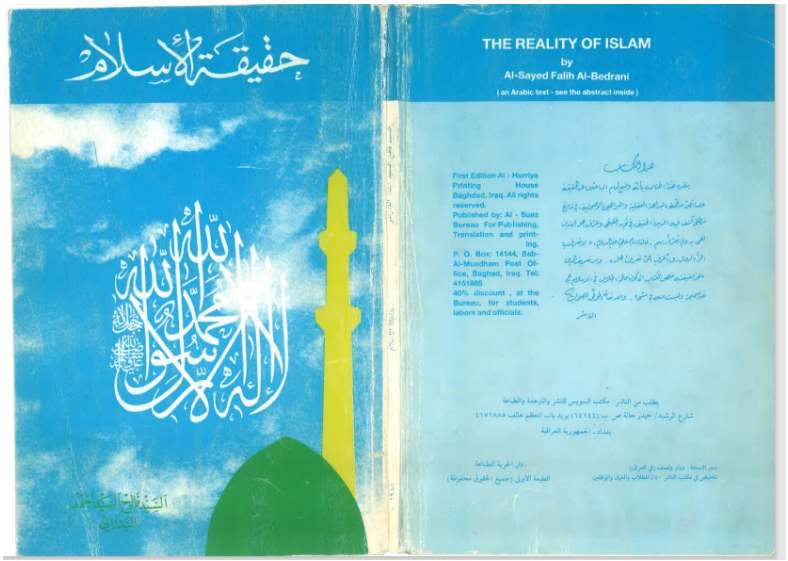

THE REALITY OF ISLAM

by

Al-Sayed Falih Al-Bedrani

(an Arabic text - see the abstract inside)

First Edition Al - Hurriya Printing House Baghdad, Iraq. All rights reserved.

Published by: Al - Suez Bureau For Publishing, Translation and printing.
P. O. Box: 14144, Bab-Al-Muadham Post Office, Baghad, Iraq. Tel: 4151885

40% discount , at the Bureau, for students, labors and officials.

يطلب من الناشر : مكتب السويس للنشر والترجمة والطباعة
شارع الرشيد/ خيدر خانة ص .ب (١٤١٤٤) برقيا باب المعظم هاتف ٤١٥١٨٨٥
بغداد - الجمهورية العراقية

دار الحرية للطباعة
الطبعة الأولى (جميع الحقوق محفوظة)

يسر النسخة - ديار ونصف في العراقية
تخفيض في مكتب الناشر - ١٠٪ للطلاب والعمال والموظفين

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الكتاب

الحمد لله حق حمده • لا نحصي ثناءً عليه • هو كما أثنى على نفسه • ونعبده ونستعينه ونستهديه صراط الذين أنعم عليهم • ونشهد أن لا اله الاّ هو قائماً بالقسط • ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله •

اللّهم صلِّ على من أتممت به نعمتك وأكملتَ معه لنا دينك ؛ وجعلته اسوةً حسنة لا يزيغ من اهتدى بها ولا يضلّ ؛ وأرِنا حقاً ما أريته له حقاً وأرنا ما ابطلته على يديه باطلاً ؛ وعلى آله الذين لقّيتهم نضرةً وسرورا وعلى اصحابه الرحماءِ بينهم رُكّعاً سُجّداً ؛ وعلى امته خير الأمم يأمرون بالمعروف وينهون عن المُنكر ويؤمنون بك • اللهم وألحِقنا بهم ، انك لما تشاء قدير •

وبعد ، أيها القارىء المؤمن ، لقد بيّن اللهُ تعالى شأنه سُبُل سلامِهِ ودعانا لِنَيْلِ جواره • فكانت دعوتُه ، على لسان الرسل الكرام والانبياء العِظام ، حجةً لمن استجاب

وحجةً على مَنْ ابى • فمن أجاب فقد توكّل على مولاه ، ومن ابى فقد توكّل على نفسه الأمّارة بالسوء • وبهذا صار الدينُ عند الله تعالى : سمعاً وطاعةً ، وهو الاسلام له • وصار السامعون والطائعون هم المسلمين وبذلك اسماهم ابوهم ابراهيم صلى الله عليه وآله وسلم بالمسلمين •

وبتوحيد الخالق تعالى انتفى الشرك • وحدّدَ الواحدُ معالمَ هذا التوحيد بالمنهج الرباني فكان المنهج ليس هو المقصودَ لذاته بل وسيلةً للمقصود به ، وهو اللهُ تعالى • فكان التوحيد أصل العلم واصل العمل ، ودارت حوله الاركان والسُنن في العبادات والمعاملات ، وهكذا برزت حقيقة الاسلام ان يكون وسيلة لعبادة الاله الواحد كما ينبغي لجلال قدره وعظيم سلطانه وكريم وجهه •

وصل التوحيد الى العباد برسالة ربانية حملها الانبياء والمرسلون • فكان الايمان بهم أصلاً ضرورياً للوصول الى صحة العبادة وهم أسوةٌ حسنة • وختمهم تعالى بمن اكمل به الدين واتمّ به النعمة • ثم غيّب الله تعالى منظر النبوة العظيمة بمشيئة حكيمة ، و بساعة شديدةٍ على اهل الايمان هي ساعة وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وما ادراك ما تلك الساعة !؟ كانت تتطلب حزماً وشجاعة وخشيةً وعلماً فقامت الأمامة الـتَرِثَ الرسالة بين المسلمين فتديمَ رفعَ راياتها ما دام هناك توحيدٌ وموحّدون • واشترط الله تعالى للامامة الصادقة الحقة عصمةً فأمر بها بقوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً

ولا تفرّقوا[1] » . وجعل في الاستقامة على العصمة هداية الى الطيّب من القول والى صراط الحميد : « وهُدوا الى الطيّبِ من القَولِ وهُدوا الى صراطِ الحميد »[2] . « ومَنْ يَعْتَصِمْ بالله فقد هُدِيَ الى صراطٍ مستقيم[3] » .

فمن خرج على العصمة فقد توكّل على نفسه أو أنكر أو سخر ومكر ، اي فقد ظلم نفسه ، والله لا يهدي القوم الظالمين . قال تعالى : « فإنْ لم يستجيبوا لَكَ فاعْلَمْ انّما يتّبِعُونَ أهواءَهم ، ومَنْ أضَلُّ مِمّنِ اتّبَعَ هواه بغَيْرِ هُدىً من الله . ان اللهَ لا يهدي القومَ الظالمين »[4] . فلا يبالي تعالى لمن توكّلَ على نفسه في ايّ وادٍ يهلك في الدنيا ولا في اي واد يحشر من اودية جهنم فقد قال تعالى فيهم : « ومن يُشاقِقِ الرسولَ مِنْ بعدِ ما تبيّن له الهدى ويَتّبِعْ غيرَ سبيلِ المؤمنينَ نُوَلّهِ ما تولّى ونُصْلِهِ جَهنّمَ وساءَتْ مَصيرا[5] » .

أما مصير الاستجابة والاتباع فحياة طيّبة في الدنيا والآخرة ، في المحيا والممات ، وبهذا يتجلّى العدل ضمن الادلة عليه فقد قال تعالى : « أمْ نجعلُ الذين آمنوا وعَمِلوا

---

(١) آل عمران / ١٠٣ .
(٢) الحج / ٢٤ .
(٣) آل عمران / ١٠١ .
(٤) القصص / ٥٠ .
(٥) النساء / ١١٥ .

الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل المتقين كالفجّار »[٦] . وهكذا يؤدي الاسلام الى معادٍ حميد ويؤدي الكفر والانكار والاستكبار والشرك والنفاق الى درجات في العذاب من ضحضاحٍ في جهنم الى الدرْك الأسفل من النار .

إذاً ، لمعرفة الاسلام على حقيقته (التي عرّفه الله تعالى بها والتي دلتْ عليها الحكمة النبوية) ، لابد من إيضاح التوحيد والنبوّة والامامة والعصمة والعدل الرباني والمعاد . والمهم في إسلامنا ، ومعرفة حقيقته ، ايضاحٌ مفصّل للتوحيد والنبوّة والأمامة والعصمة ، والاكتفاء في هذا السياق عن العدل والمعاد بما يرد في تفصيل الاصول الاربعة الاولى . ولاسيما وأن العبد مأمور بالاستقامة « فاستقِمْ كما أُمِرت ومن تاب معك »[٧] . وإن الاستقامة تتطلب المعرفة بالتوحيد لكي يعلم الموحدُ ما يشهد به « شَهِدَ اللهُ أنّهُ لا إلهَ الاّ هوَ والملائكةُ واُولُوا العلم قائماً بالقسط[٨] » وهذا التوحيد بمعرفة حقّ لا اله الاّ الله هو الركن الاول من الاركان التي بني عليها الاسلام وهي الشهادتان ثم الصلاة والصوم والزكاة والحج لمن استطاع اليه سبيلا ، ففي أداء هذه تتم الاستقامة .

ولابد من التعرّف على حقيقة الاسلام من مصادره الثابتة (اي القرآن والسنّة الحكيمة التي آتاها تعالى للرسول الكريم

---

(٦) ص / ٢٨ .
(٧) هود / ١١٢ .
(٨) آل عمران / ١٨ .

صلى الله عليه وآله وسلم) . فالقرآن بِفَهْم الرسولِ صلى الله عليه وآله وسلم حدّد معالم النموذج المعياري الباقي المسلمين الصادقين . ولكن ايراد كل ما يُعرف بهذا الصدد يخرج عن الرغبة في الاكتفاء بما قلّ ودلّ ، ولهذا يجد القارىء تلخيصاً متركزاً على الهدف ليبقى في إطار البحث ، وهو كشف حقيقة الأسلام : ديناً أزلياً مشرعاً في السماء والأرض مذ خلق الله تعالى ذوي العقول المكلّفين بعبادته توحيداً مطلقاً لا شرك فيه وإلى الأبد الذي لا تعلم له مشيئةٌ غيرُ مشيئة الله تعالى فهو الأول والآخر وهو على كل شيءٍ قدير .

ويبدأ البحث بالبحث عن حقائق التوحيد ؛ لتكون بارزة المعالم ، بيّنةَ الوضوح . فاذا تعارض معها اتجاه أو ظنٌ أو تقديس تهاوى امامها باستسلام كل باطل زاهق عندما يأتيه حق مبين . « ذلك بأن الله هو الحقُّ وانّ ما يدعونَ من دونهِ الباطلُ وانّ الله هو العَليُّ الكبير[٩] »

ثم يعرض البحثُ الى الكفاءةِ التي وهبها الله لمن ارسلهم برسالة التوحيد ، عليهم صلوات الله وسلامه ، وهي النبوّة ويخلص البحث عنها الى مدى منزلة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وانها مدعاة الى التوحيد من غير أن يكون لها أثر من نفسها بل بفنائها بالأمر الرباني .

ثم يعرض البحث ما ينبغي للتوحيد بعد النبوة المحمدية الكريمة من ضرورة الامامة المعتصمة بالله تعالى طالما يكون هناك

---

(٩) لقمان / ٣٠ .

من المؤمنين من يُعِدّ العُدّة والعدد لاعلاءِ كلمةِ اللهِ تعالى حتّى تتم صدقاً وعدلاً : اي صدقاً من وعدِ الله تعالى وعدلاً من حقٍّ أن تكون كلمةُ الله هي العليا .

ويتطرق البحث الى المسلمين الذين ارتضوا الله تعالى رباً ؛ ومحمداً ، صلى الله عليه وآله وسلم ، نبياً ورسولاً ؛ والاسلام ديناً حنيفاً . فاذا بالمسلمين ، كما ينبغي لهم ، يدٌ واحدة مع الحقّ .

وأخيراً ، ومن حقيقة الاسلام الناصعة التي لا يُماري فيها مسلم — أن جاءت من الكتاب الكريم والحكمة النبوية الشريفة — ينطلق البحث الى بيان أسباب تجعل المسلمين على خلاف مع بعضهم ، واسباب تجعلهم يداً واحدة ، ويدُ الله فوق ايديهم ، كما اشار الله تعالى اليه في كتابه العظيم وكما اوردته الحكمة الرسالية التي لم ترجع ، في نطقٍ تنطقه واحدٍ ، لغير الله تعالى .

إنّ بحثاً كهذا ينبغي أن يتجرّد عن الميل العاطفي نحو مذهب ، ويتجرد عن التهكم والطعن ، ولا يرى إلاّ من زاوية حُسن الظنّ فلا يتحدث إلا بالكتاب والسنة والسيرة الصادقة لائمة المسلمين لتكون أُنموذجاً للتمسك بالعروة الوثقى .

الله تعالى أسألُ أن يحفظ هذا العلم من وساوس الصدور والظن السيء وحقد اهل الزيغ والنفاق ممن نراهم صوراً متكررة لما كان عليه النفاق منذ رفع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم راية « لا اله الاّ اللهُ محمدٌ رسول الله » . والله تعالى اسأل أن يجعل أجرَه عليه تعالى ، وهو الجدير بالاجابة والثواب

الاوفى . وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله النبي الامي ، وعلى آله قرة عيون أهل الصدق ، وعلى أصحابه وأحبابه أهل الجنة التي هي وعد الصدق الذي كانوا يوعدون .

السيد فالح السيد احمد البدراني

حي المعرفة (السيدية) / ٨٢١/٨٦/٥٥

بغداد المحمية

١٤٠٨هـ/١٩٨٨م

الباب الاول

التوحيـــد

والتوحيد ، الذي دلّ عليه القـرآن الكـريم واوضحته الحكمة النبوية ، يعني : تركَ اتخاذ العبد إلهاً غير الله تعالى • ومعنى اتخاذ العبد الهاً له : هو جَعْلُ المعبود هدفاً وحيداً رئيساً في مسعى العبد وقصده اليه ؛ ايماناً به وثقةً لا تتزعزع بصفاته الحُسنى • وعلى هـذا يدور السعي في صلاة العبـد ونُسُكِه ومحياهُ ومماتِه محفوفاً بالصدق والصبر والعِفّةِ والصمت عن لَغْوِ الحديث وفضول الكلام •

لقد ورد اسمُ الاله بصيغة المفرد (الفرد العَلَم) عندما يكون المقصودُ هو اللهَ تعالى شأنُه • فلا شريك له ولا والد ولا ولد • وهذا الاسم ، (الاله) ، لايُجمع مع جنسه إلاّ اذا كان المقصودون بذلك غيرَ الله تعالى وبصيغة جمع التكسير : (آلهة) • فلا يكون مفردُها إلاّ صَنَماً أو وثناً او رمزاً آخر من البشر أو غير البشر من غير الله تعالى سبحانه عن كل شريك وعمّا يصف المشركون • وهكذا يكون الواحدُ الاحدُ : مُنزّهاً عن الدخول في جمع من جنسه ؛ ومفرداً بالصفات الالهية التي لا تنبغي لغـيره تعالى وبذلك لا يتّصل غيرهُ به إلاّ بالعبودية •

فما هي الصفات الالهية التي يكون بها الدينُ كلُّه لله ؟ ان الاله ، في ما تعارفتْ عليه اللغاتُ على مَـرِّ العصور ، هو ذات لها قوةٌ تفوق ما يُمنح منها للبشـر وغير البشـر من قوة ؛ ولها مبادرة تأتي من قدرة مطلقـة لا يَردُّها غيرها ؛ ولها عِلمٌ بالغيب وبالاسرار ؛ ولها أَمْرٌ نافذ في النفع والضـرّ والموت والحياة والنشور والحساب والثواب او العقاب ؛ ولها تقدير غير مردود في الرزق بالمال والولد والعافية والجاه وفي النِّعَم الظاهرة والباطنة ؛ ولها سطوةٌ لا تُقهر في النصر أو الخذلان ، في التيسير او المنع ، في التثبيط أو التثبيت . وتعني أيضاً للاله أن تستجيب كل الطاقات لأمـره في حـالٍ يقصُـر كلُّ طَوْلٍ عن عزّته ومعاصِـمِه . وتعني أيضاً إحاطة الاله بكلِّ شيءٍ علماً في حاضرٍ وغيبٍ وملكوتِ السماوات والارضين .

وهكـذا الله تعالى وهو اكبر واكثر . فهو كما اثنى على نفسِه في آية الكـرسي في كتابه الكـريم « أَللهُ لا اله إلاّ هوَ الحيُّ القيّومُ . لا تأخُـذُهُ سِنَةٌ ولا نـومٌ . لهُ ما في السّمواتِ وما في الأرضِ . من ذا الذي يَشـفعُ عِنده إلاّ بِإذنِهِ . يعلمُ ما بينَ ايديهمْ وما خَلْفَهُم . ولا يُحيطونَ بشـيءٍ من علمهِ إلاّ بما شـآء . وسع كُرسيُّه السـموات والارض . ولا يؤُدُه حِفْظُهُما . وهو العلي العظيم » .

وهو كما وصف نفسه تعالى في اواخر سورة الحَشْـر : « هو اللهُ الذي لا إلـه الاّ هو عالِمُ الغَيْبِ والشهادةِ هو

الرحمن الرحيم * هو اللهُ الذي لا اله إلاّ هو المَلِكُ القُدّوسُ السّلامُ المؤمِنُ المهيمن العزيزُ الجبّارُ المُتكبِّر سُبحان اللهِ عمّا يُشركون * هو اللهُ الخالِقُ البارِيءُ المُصَوِّرُ لهُ الأسماء الحُسنى يُسَبِّحُ لهُ ما في السموات والارضِ وهو العزيزُ الحكيم » .

وهو كما ختم صفاته في القرآن الكريم في سور الاخلاصِ والمعوّذات : « قُلْ هوَ الله أحَدٌ * اللهُ الصَمَدُ . لم يَلِدْ ولم يُوْلَدْ . ولم يَكُنْ له كُفُواً أحد . » ثم « ربِّ الفَلَق » و « ربِّ الناسِ ملكِ الناسِ الهِ الناسِ » .

فمن آمن بهذا ؛ وآمنَ انهُ تعالى يُحيي المَوْتى كما أنْشَأهُمْ أوّلَ مَرّةٍ واليهِ يُرجعون في الحياةِ الآخِرة ؛ ومَنْ آمَنَ أنه تعالى له الخَلْقُ والأمرُ كُلّه ؛ ومن اقترنت نيته صدقاً بالعملِ استطاعةً ضمن الشريعة ، بلا زَيغ ولا توقّفٍ عند العَقَبات ، وبترك الشُبُهات وإنْ مال اليها هوى النفس ، وبالتخلّص من الغَفْلَةِ بالذكر ومن الزّيغِ بالإنابة والاستقامة وتصحيح المعاملة مع الله تعالى على السُنّةِ الشريفة لرسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم ؛ فقد تحقّقَتْ له ولايةُ الله تعالى في مقعد صِدْقٍ عند مليكٍ مقتدر[1] .

وهكذا يخرج العبدُ من ظُلُمات الضَلال والظُلم الى نور التوحيد بما يرحمُهُ تعالى إذْ يختصّ برحمته من يشاء .

---

(١) راجع باب (ولاية الله تعالى) في كتابي (نور على معرفة) ففيه ايضاح مُوسّع لذلك .

ولا بأس بأن يلتفت المؤمنُ المستبشر ببيعهِ الذي بايعَ اللهَ تعالى به على السمع والطاعة ، فيلقي نظرةً الى ظلمات الشرك عَبْرَ التاريخ • فقد شهدت البشريةُ ، وتشهد ، أقواماً عبدوا غير الله تعالى ؛ أو أشركوا به أو انتقصوا مِنْ قَدْرِهِ الجليل العظيم • وهاهم ، اهلُ الشرك والكفر ، ينسبون صفةً أو اكثر من صفات الالوهية لغير الله تعالى أو لا يؤمنون بها حصراً له تعالى • فاذا ألقى المؤمنُ من علياء نور الايمان نظرةً من بصيرته الصافية على ظُلُمات الجهل والضلال فقد ذاق شعور الامتنان على حُرّيته من ظلماتِ الجَهَالةِ والتِّيْهِ ؛ وشعور الاعتزاز بالله تعالى الذي جعل في توحيدِ العبدِ له حريةً عن غيره لا تَعْرِض سعادتُها الاّ لمن ذاقها ، ولا يغمرُ سرورُها إلاّ من صَدَقَ في الثباتِ عليها • فتكونُ عِبادةُ المؤمن لخالقِهِ ذاتَ جوانب من المعرفة الصافية الواضحة بحيثُ لا تُحْجَبُ الحقيقةُ عنه ، تلك الحقيقةُ التي يعلمها اللهُ تعالى بعلمه الحق الذي لا يأتيه الباطِل من بين يديه ولا من خَلْفِهِ • فالحُجُبُ ، اذاً ، حصلت من نفس العبد كما هو الهوى المنحرف بالزيغ والمَيْلِ معه نحو المعاصي وكما هو الاتّصاف بالرذائل •

والحقيقةُ التي تبدو للمؤمن عن إسلامِهِ لله تعالى هي مفهوم العبادة عنده وهي المعنى الصحيحُ لها وكُنْهُها الذي يُدرِكُهُ على قَدَرِ سِعةِ وَعْيِهِ بحيثُ يوقِنُ بأنه أسلم وجهَهُ لله تعالى وهو مُحسِنٌ يرجو ثباتاً على ذلك ويخاف الزيغَ عنه •

وأول ما تتم به العبادةُ هو المعرفة بها • ومعرفةُ العبادةِ هي : الاتجاه بالعاطفة التي يمتلكها ، كُلاً ، الى الله تعالى وجَعْلُ جزئيات هذا الكل (أي العواطف الثانوية) هادفةً نحو العاطفة الرئيسة وتدور في فلكها • وبذلك يتحقّق معنى الاتجاه بالعاطفةِ ، كُلاً • فما هي العاطفةُ التامّة ؟ إنّها المَيْلُ القلبيّ الشاغلِ نحو هَدَفٍ واحدٍ لا يُنافسه هدفٌ آخر ولا يحتل القلبَ غيرُهُ بحيث يكمن وراء كل نشاط نحو كل هدف فرعيٍّ ظاهر • فاذا افترضنا ان الهدف الشاغل الرئيس لأحد المُرابين هو جمع المال فإن نشاطه سيكون متجها لتحقيق ذلك بحيث تكون اهدافُه الظاهرةُ وسيلةً لتحقيق هدفه الكامن في قلبه • فمثلاً : يدرس من اجل المال ؛ ويتزوّج امرأةً ثريةً من أجْله ؛ ويبني علاقاتِه الاجتماعيةَ على ضوئه ؛ وينحرف عن الفضائل إذا تعارضتْ مع جَمْعِه ! فيقال عنه انه : عبد الدينار والدرهم •

بينما يكونُ المال هدفاً ثانوياً لمن كان يعبد الشهرة والجاه • فينفق المال من أجل هدفه الشاغل ويُشار اليه بأنه عبد الجاه أو عبد المناصب أو عبد الخميصة •

ومن كُلِّ عبادةٍ لغير اللهِ تعالى تتّضح الحقيقةُ : بأن الداخل فيها قد اغمض عينيه عن حقّ الله تعالى وعن آياته الجليلة ؛ وقد جهل سبب وجوده فكأنه اعمى بين المبصرين أو ميت بين الاحياء ؛ وقد خرج من حال اسلام نفسِه لله تعالى وهو محسن الى إسلامِ نفسِه لغير الله تعالى مسيئاً لها ، ظالماً إياها إلاّ أن

يتوب ويرجع الى نور التوحيد فيخرج من ظلمات عبادة غير الله تعالى الى نور توحيده تعالى فيشهد مع الله تعالى والملائكة واولي العلم : أنه تعالى لا اله الاّ هو • فما هي علامة توحيد العبد لله تعالى ؟

يتوحّد الله تعالى في مظاهر وكوامنِ سلوك عبده المؤمن عندما يتفق هذا السلوك مع حقّ (لا اله إلا الله) • فحقها : ايمان بوجود الخالق جلّ علاه ؛ وثِقةٌ بقدرته تعالى ؛ وحُسْنُ ظن بصفاته ، وكل صفاته حُسنى ؛ ورجاء برحمته وقَصْرُ صفات الالوهية على ذاته الجليلة الكريمة ونَفْيُ صفات الاله عن غيره ؛ ثم الإحسان في السلوك اليه بالتصحيح وفق أوامره وسُنّة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ ثم اتباع بالطاعة لاولي الأمر من المعتصمين بالله تعالى في المقاصدِ عندما تعتمل في النوايا والعزائم ، وفي الفروض والنوافل وفي الثبات حسب الاستطاعة الى نهاية الحياة • ويصاحب كلّ ذلك : يقينٌ راسخ بلقائه تعالى بعد هذه النهاية ، والتي ما هي إلاّ بداية للحياة الحقّة الخالدة التي يُنْتَقَل إليها بالموت •

وهكذا حقّ لا اله الا الله ، وثمن هذا الحق عند الله تعالى الجنةُ • قال صلى الله عليه وآله وسلم « ثمن الجنّةِ لا اله الا الله[٢] » •

---

(٢) رواه عبد بن حميد في تفسيره عن الحسن (ع) مرسلا . ورواه ابن عدي في الكامل وابن مردويه عن انس .

فمن شاء أن يتخـذ الى ربه سبيلاً فقـد اتخذ قراراً عن تَبْصِرَةٍ ويقين ونية صادقة وحذرٍ عن الزيغ • ومظهرُ ذلك لدى المؤمن الموحّد العالِم الواعي : أن يكـون امرُ الله تعالى أعلى امرٍ في نفسه بأن تكون قرارات المؤمن المتخذة بشكل حاسم قد جعلت اللهَ تعالى هدفاً رئيساً لسلوكه • وتدخل تصرفاتُه ، لتحقيق هذا الهدف ، ضمن الشريعة التي ارتضاها المولى جل علاه لعبادِهِ المؤمنين • وتكـون النيّةُ في كل ذلك تَوَكّلاً على المنهج الرباني أي نزيهةً عن غير الله تعالى من المكاسب المتفقة مـع حب الدنيا • وهذا يثير في الفكر انتباهاً الى العوامل المؤثرة في اتخاذ القرار الحاسم ــ اي للتراكيب التي يمتلكها الانسان ــ من أجل السلوك نحو الهدف •

لا يمكن للقرار ان يُتّخذ إلاّ اذا كانت هناك حريةُ اختيار تمتلكها النفس مـع موازين ومعايـير لكشف رجحان الكفّـة المختارة • فماذا تمتلك النفس من ذلك ؟

إن الكيان الظاهر من الانسان هو جسمه • ولكن الانسان ليس جسماً فقط • فمن البدهي أن نشاط الجسم يدل على امور اخرى : يـدل على مصدر للطاقة يمدّهُ بالنشـاط ، ألا وهو الروح ؛ ويـدلّ على جهاز يتصل بالعالم المحيط به فينقل لـه المجريات المعنوية ، اي التي لا تحسها حواسّ الجسم ، وهـذا الجهاز هو القلب والمقصود به الفكـر الذي تأوى إليه الخواطر ويجول فيها ؛ كما يدل النشـاط المذكور على ترجيح سلوكٍ ما على اثر إشارة أو نصيحة جاءت من خبيرٍ له ميزان موثوق أشبه

بالوزير الحصيف ، ألا وهو العقل ؛ وأخيراً يدلّ على وجود ذات تتخذ القرار وتأمر بالاجراء وتصرّ عليه أو ترجع عنه ، وتحس بالرضا او الندم وبالشكر أو التذمر وبالسرور أو الكآبة ، ولها هوىً نحو شيىء ، ولها حق اختيار ميلها مع الهوى أو ضده ؛ مع الحق او الباطل ، مع الرحمة أو القسوة ، مع المحبة او البغضاء وما الى ذلك من آفاق ، ألا وهي النفس التي فوق كل ذلك للانسان بصيرةٌ عليها (اي على نفسه) .

والنفس للانسان إما مالِكةٌ او مملوكة . فهي ملِكة في قبول نصيحة العقل او رفضها ، وفي اختيار أوامرها . ولكنها — ان استجابت لهوىً ضال لا يتفق مع الايمان والهدى الذي اظهره الله تعالى الى بصيرتها بالدلالة والارشاد — فهي نفسٌ امّارة بالسوء . فإن ملكها الانسان اي وجّهَها بالنهي فهي لوّامَةٌ بالتوجيه نحو الأصلح والاقلاع عن السوء . فان انتهت بالنهي واستقرت على الاستقامة فهي نفس مطمئنة . فإن جاءتها المكافأة على هذا الانتهاء وعلى هذه الاستقامة فهي نفس راضية ورضاها يأتي من كونها صدقت في الابتلاء وستكون مرضيةً عند مليكها المقتدر .

إن معرفة الانسان بموعد حصول المكافأة قد حصلت من أخبار الصدق ، وارتسمت في البصيرة التي تنظر في ما وراء حدود البصر ، ويعقبها التبصّر بالعاقبة قبل حصولها فاذا بها عاقبة طيبة تبعث الرضا وتُكسب السرور . فما دام هذا الذوق قد حصل فإن العقبات التي توضع في طريق تلك العاقبة ما هي إلاّ مَكارِهُ

يُمتَحن بها صِدقُ السالك نحو المصير الحميد لتُقَيَّم بها منزلتُه وتثبت بها حجّته .

ولمعرفة اسباب السلوك الانساني ، فلابد من استقراء اصول هذا السلوك : فالمحيط ، الذي يحتوي عيش الانسان ، مليىء بظواهر مادية واحاسيس تابعة لها ومتعلقة بها . ولنأخذ مثلاً وجود الطعام في السوق ، فلولا غريزة الجوع وضرورة الطعام للجسم لما حصلت للانسان علاقة بالطعام الذي هو شيىء مادي ملموس ، إذاً فلابد من الحصول عليه . وهناك تفاضل في أنواع الطعام ، فالنفس تتوق للأفضل ، وهذا هو الهوى . فإن اتفق هواها مع المباح فلا توجد عَقَبَةٌ امتحانية ، وان لم يتيسر لها الافضل بطرق مشروعة فهي إمّا تصبر عنه وتأكل غيره مما يتفق مع الشرع وطرق الحلال ، وإما تسلك سلوكاً غير مشروع لكي تحصل على ما دخل في هواها . فإن سلك الجائع طريقاً محرّماً عليه وأسْكتَ غريزة الجوع ، باشباعها بما اشتهى ، تحركت عنده نوازع العِفّة وتَملّكه الندم . فإن استجاب للندم (بأن نهى النفس التي امرته بالسوء عن هواها او الاستجابة له مستقبلاً) كانت نفسه لوّامة ، كما سبق تفصيله ، ودخلت في رحمة الله تعالى بالتوبة . قال صلى الله عليه وآله وسلم : « التوبة النصوح : الندم على الذنب حين يفرُطُ منك فتستغفر الله تعالى ثم لا تعودُ اليه أبداً[٣] » .

ويُقاس على هذا ما يكون عليه سلوك الانسان مع باقي الغرائز كشهوات الجاه والشهرة والتفوّق والتملّك والغريزة

(٣) رواه ابن ابي حاتم وابن مردويه عن اُبَيْ .

الجنسية وكالفضائل من عبادةٍ وامانة ورحمة وعفّة وما شاكلها . وقد اغفل باحثو الغرب من اهل نظريات العصر المتأخر إظهار غريزة العبادة المؤدية الى السعادة . فقد غلبت في كتب (علم النفس) نظريات خاطئة وخرج به الكثيرون عن مفاهيم الايمان والإنابة الى الله تعالى فأثاروا نظرياتهم حول مفاهيم الشعور بالاثم وجعل الغريزة الجنسية مداراً لحياة الانسان بحيث يتوهم بأنه مالم يتّبع شهواته فسوف يعيش في صراع وقلق على عكس ما اقره الشرع . وهكذا دخلوا في تَيْهٍ من النظريات المبنيّة على الظن الذي لا يُغني من الحقّ شيئا . ومن مساوىء علمهم حصول تشكيك اهل العبادة بصدقهم فيها مع الله تعالى لأن علمهم مبني على المصلحة الفردية وليس على التعلق بالايمان من أجْل الله تعالى . ولا نزال نسمع عن نقض النظريات النفسية عن الغرائز بنظريات اُخَر ما تلبث أن تتهاوى بدون برهان ناصع مقبول مثلما يقبل المؤمن صدق الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم . ولن يستقر اولئك ويطمئنوا حتى يرجعوا الى ما هو حق في علم الله ويقرّوا بمبدأ الشعور بالمغفرة والرضوان في حياة خالدة بعد الدنيا .

ومن هذا الايضاح يكون التوحيد دليلاً على أن النفس الانسانية قد زَكَتْ بعاطفتها ذات النشاط المتواصل إذ خصصتها لعبادة الله تعالى . فالمؤمن ، وهو في هذا الذوق ، لايرى غريزة الجوع إلا دافعاً لقوته على العبادة . فلا يشبعُها إلاّ بما يُرضي الله تعالى . ولا يرى في غريزة الجنس إلاّ دافعاً لادامة العبادة

يتعاقب الاجيال فلا يُشبعها إلاّ بالطرق المشروعة • ولا يرى في غريزة التعلم المتقدم والعلوم إلا وسيلة لِنُصرة الله تعالى باعداد ما يلزم لها من عُدّةٍ وعدد ، وهما القوة التي تُرهب عدوّ الله وعدو المؤمنين • وهكـذا في دأب مُتواصِل في ضبط اشـباع شهواته وغرائزه ضمن الشريعة في اوامرها ونواهيها بما اوضحته الحكمة النبوية •

اما العمل والتصرف ضمن الاوامر الربانية (وهي أساس الشريعة) فهو من مستلزمات التوحيد لأن الشريعة قد جاءت من أجله • وان التصرف ضمنها (اي في حدودها بقدر الاستطاعة) يفرّق بين الحق والباطل • قال تعالى : « يا ايها الذين آمنوا إنْ تَتّقُوا اللهَ يجعلْ لكـم فرقاناً ويكَفّرْ عنكم سيّئاتِكـم ويغفِرْ لكم واللهُ ذُو الفضلِ العظيم[٤] » •

أما الباطل فهو ما يتبعه الانسان من خواطر تتعارض مـع الشـريعة وبدون برهان (اي بدون دليـل يقيني او إكراهٍ أو ضرورة) • وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم في ذلك « من عمِل عملاً ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ »[٥] •

والخواطر تَرِد إلى قلب الانسان وتتعرض له من مصادر شتّى • وتكون متنوّعةً بتنوّع مصادرها : فمنها محبةٌ ورحمة وما يتبعهما من فضائل الجود والعَون والكرم والتسامح وما الى

---

(٤) سورة الانفال / ٢٩ .

(٥) رواه احمد في مسنده ، ومسلم عن عائشة ـ حديث صحيح .

هذا ؛ ومنها ما يتفق مع الشريعة وحب الخيرات من اتجاه صحيح ؛ ومنها مالا يتفق بل تهواه النفس الامارة بالسوء ؛ ومنها ما يُشْقي الانسان بالبخل والبغضاء والفحشاء والمنكرات وما إليها . وقد استدلّ اهلُ العلم على مصدر كلّ نوع من هـذه الخواطر : فالصنف الاول من اسماء الله تعالى ، الودود ، الرحمن ، الكريم ؛ والثاني من أوامـرِهِ التي تنزل بها الملائكـة باذنه « تَنَزَّلُ الملائكةُ والروحُ فيها باذن ربّهم من كل أمـر[٦] » ؛ والصنف الثالث من شـهوات النفس اذا ما مالت نحو ما زُيّن للناس من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهـب والفضة والخيـل المسوّمة والانعام والحَرث . وهذا المَيلُ هو نقطة التخيير بين التصعيد نحو نهي النفس عن الهوى من جهة ، وبين اتباع الهوى بغيرِ هدىً من الله من جهة مقابلة . فان استجابت النفس لهوىً لاهدى معه فقد فتحتْ الباب عليها للصنف الرابع وهو خواطر الشيطان بالبخل والفحشاء والبغضاء والصَّدّ عن سبيل اللهِ وقول الزور والخشية من غير الله . ولقـد وضّح ذلك رب العـزة في القرآن الكـريم : « الشيطـانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ ويأمـركم بالفحشاء[٧] » . و « إنما يُريدُ الشيطانُ أن يُوقع بينكم العداوةَ والبغضـاءَ في الخمر والميسـر ويَصُدّكم عن ذِكر اللهِ وعن الصلاة[٨] » . و « إنما ذلكم الشيطـان يخوّف اولياءه فـلا

---

(٦) القدر / ٤ .
(٧) البقرة / ٢٦٨ .
(٨) المائدة / ٩١ .

تخافوهم وخافونِ إنْ كنتم مؤمنين »[٩] . فاذاً يتسلّط الشيطان على متّبعي الهوى الضالّ اي على المتوكلين على أنفسهم . اما المتوكلون على الله تعالى اي مُتّبعو المنهج الرّباني فقد قال تعالى فيهم « إنّه ليس لهُ سلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكلون[١٠] » . كما لن يتسلّط شياطينُ الإنس على المؤمنين فقد قال تعالى : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا[١١] » . ومن هذا الايضاح يُستنتَج معنى (المغضوب عليهم) اي شياطين الانس الذين يتولّون مهمة الشيطان في الخواطر الشيطانية وهم يعلمون أنهم مُضِلّون ، ويُستنتَج معنى (الضالّين)اي اولئك الذين يستجيبون لهم ممّن يَشُقّونَ عصا الطاعة على الأوامر الربانية وعلى التوجيهات النبوية لعدم تقديرهم لعواقبِ الحياة الدنيا ، اي عدم ايمانهم بالاخرة ، وقد اتضح ذلك من قوله تعالى : « وكذلك جعلنا لِكُلّ نبيٍّ عدوّاً شياطينَ الأنس والجنّ يُوحِي بعضُهم الى بعض زُخرفَ القولِ غروراً ، ولو شاء ربّك ما فعلوه ، فذَرْهُم وما يفترونَ * ولِتصغى إليه افئدةُ الذين لا يؤمنون بالآخرة ولِيَرضَوه ولِيَقْتَرِفوا ما هُم مقترِفونَ »[١٢] . فاذاً كان الاصغاء الى زخرف القول غروراً والرضاءُ به من صفات الذين لا يؤمنون بالآخرة . وهكذا ميّزهم اللهُ تعالى بالضلال وهو

---

(٩) آل عمران / ١٧٥ .
(١٠) النحل / ٩٩ .
(١١) النساء / ١٤١ .
(١٢) الانعام / ١١٢ و ١١٣ .

يعلم مُسبقاً استجابتهم لهذا الضلال والإضلال وهو تعالى الذي خلق شياطين الانس والجن فيقولون على الله الكذب وهم يعلمون لكي يصدّوا الضالين عن صراط الله الحميد الذي يؤدي الى جواره • فإنّ مثل هذا الصراط وهذا الجوار اكبر وأطهر من أن يثبت عليهما من لا يليق بهما متدنساً بحب الدنيا واتباع الهوى الضال والاصرار على مشاققة الرسول ، صلى الله عليه وآله وسلم، وترك سبيل المؤمنين •

إذاً كان الضلال هو الباطل الذي ورد ذكرُه آنفاً بأنه ما يتبعه الانسان من خواطر تتعارض مع الشريعة وبدون برهان (كالاكراه مثلاً) وهو المعنيّ بقوله صلى الله عليه وآله وسلم (فهو ردٌّ) ، اي مُناف لتوحيد الهدف والعبادة والاتباع والاستقامة على ذلك • ويقابل ذلك العودةُ الى الاستجابة للتوحيد باتّباع الشريعة ، اي التّهيؤ بالانابة للجدارة بالثبات على الصراط الحميد وبالجوار الرباني ، وقد تبيّن الرُشدُ من الغي •

ويتبادر هنا قول اهل الجدل بغير علم : بأن الانسان مُسَيّرٌ ومُقدّرٌ له سَيْرُهُ إذْ رُكّبت فيه الغرائز ، وتبعتها الشهواتُ التي لا تُميّز بين حقٍّ وباطِل ، ثم لا يحصل بعد ذلك فعلٌ إلا بمشيئة الله تعالى الذي قدّره وهيّأ ظروفه التي اختارها تعالى لفاعله ! والردّ على ذلك : هو أن الله تعالى ، ومن علمه بالغيب ، يعلم ما سترتضيه نفس العبد من هدىً او بما ستتّجِهُ اليه من ضلال • فقدّر للعبد ظروفَ امتحانه ومجرياته (اي الفتنة

التي يفتنه بها) ليُظهر له قيمته التي يستحقها • وهـذا التقدير (من ظروف ومجريات) خارج عن مسؤولية الانسان فلا يُسأل عنه ولا يُحاسَـب عليه • فالله تعالى هو الذي « قدّر فَهَدى[١٣] » ، اي ألْهَمَ النفسَ معرفة الهدى ومعرفة الضلال لتفلح في زكاتها او لتخيب بدَنَسها • وهذه المجريات والظروف ، التي لاخيار للعبد فيها كالعمر والعافية وفترة العمر في معاصرة الاخرين والاطّلاع على ما سبق من فكر ودين وكالكوارث والرزق بالمال والولد وما الى ذلك من مقدرات تمّ وزنُها وتقديرها من لدن خبير عليم على قدر طاقات العبد الذهنية والبدنية ، ما هي الاّ وسائل كفيلة وضرورية لوضع العبد أمام الاختيار الذي يعلم تعالى مُسبقاً نتائجه ولكنه يريد ان يُظهرها ليحاجج بها هذا العبد عندما لا تقوم له (اي للعبد) حجةٌ على الله بعد إصراره ، حتى الرمق الاخير ، على سلوكه الذي اختاره بصدد هذه الوسائل • وقد قال تعالى في ذلك : « إنّا كلَّ شيءٍ خلقناه بقَدَر »[١٤] ؛ « وما انا بِظلاّمٍ للعبيد[١٥] » ؛ « وجعلنا بعضكم لِبَعْضٍ فتنةً أتصبرون »[١٦] ؛ « انا هديناه السبيل إمّا شاكراً واما كفورا[١٦] » ؛ « وما كان اللهُ لِيُضِلَّ قَوماً بعد إذْ هداهم حَتّى يُبَيِّنَ لهم ما يتّقونَ إنّ اللهَ بِكُلِّ شيءٍ عليم[١٧] » •

---

(١٣) الأعلى / ٣ .
(١٤) القمر / ٤٩ .
(١٥) ق / ٢٩ .
(١٦و١٦) الفرقان / ٢٠ والدهر (الانسان) / ٣ .
(١٧) التوبة / ١١٥ .

وكمثالٍ لِمَا سبق شرحُه : فإن هناك مثلاً : (ي) من الناس ، وُلِدَ وعاش في عصرٍ وُلِدَ فيه بعدَه بقليل (م) من الناس و (ن) من الناس . واكتسب (ي) خبرةً وعلوماً وقابلية للكلام والكتابة ولكنه كفر بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وقد أراد ان يصُدّ كُلاً من (م) و (ن) عن سبيل الله تعالى حسداً من عنده وحُبّاً في التسلط عليهما فكان بذلك من شياطين الانس الذين ارتضوا زخرف القول غروراً ليصُدّوا عن سبيل الله ويبغونها عِوَجاً . فأوحى بغروره زخرفاً من القول في كتاب أو اكثر وفي حفل أو اكثر بين يدي (م) و (ن) وهو يعلم أن الله تعالى قد اعطاهما السمع والبصر والفؤاد ، وهداهما السبيل ، وركّب فيهما الغرائز التي تثير في النفوس دوافع وشهوات . إلاّ أنّ (ي) لم يملك سلاحاً ليرهبهما به ولا سلطةً يضطرهما بها بل يمكر ليلاً ونهاراً ويطلق الوعود الكاذبة والاماني الخادعة وهكذا . واستمع كلاهما الى قوله . فأما (م) فقد عرض قوله على الشريعة ومشاهد الآخرة فوجد أن (ي) شيطانٌ يريد أن يصده عن سبيل الله تعالى بالمَيل الى الشهوات والاهواء ، في هذه الدنيا الفانية القليلة ، والانطلاق بعيداً عن سنن الشرع الحنيف فاستعاذ بالله تعالى وتمسّك بالشريعة فأعانه تعالى ليكون هادياً مهدياً . وامّا (ن) ، فقد وجد في زخرف قول (ي) ما يرضيه ويبهجه ويغمسه في طيّبات لم يتصوّر أنها مزيّفة كالسراب لسرعة زوالها فَضَلّ الى هاوية لم يؤمن بها ، وما ادراك ماهيه ؟ نارٌ حامية ! فهل يليق بمثل (ن) هذا أن

يكون هادياً مهدياً مثلما كان (م) ؟ وهل يختاره تعالى لنصرته وقد فتنه (ي) واضلّه عن السبيل ؟ إذاً كان تقدير الربّ العظيم في معاصرة (ي) و (م) و (ن) لبعضهم قَدَراً لا يُسألون عنه وكان لقاؤهم مع بعضهم تقديراً ربانيّاً لا يُسألون عنه بل ليضع كلاً منهم أمام مفترق طريق الفتنة . فافتُتن (ي) بحب السيادة ورغبة القيادة الفكرية والتفوق العنصري بدون برهان من ربه . ولم يُفْتَتَنْ (م) لِما تحلّى به من ايمان بالله تعالى ارتضاه . وافتُتِنَ (ن) بحب الشهوات وانقاد الى (ي) في تَيهٍ وضلال . وقد علّمنا تعالى أن نحمده أن هدانا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم (اي الثابتين على الايمان) ، غير المغضوب عليهم (أي شياطين الانس المضلّين) ولا الضالين (اي الذي اتبعوا الضلال إذ وجدوا له هوىً في انفسهم) .

لابدّ من القول هنا بأن اختيار السبيل ليس هو الهدى بذاته بل ارادةٌ تحتاج الى الارشاد . فاذا اراد احدهم السفر الى المدينة المنورة فانه سيسأل عن طريقها وكيفية الوصول اليها فيُيسّر الله تعالى له ، ان شاء ، من يرشده ويحمله اليها . وهذا هو الهدى مع التوفيق . فالسفر للمدينة المنورة امرٌ محسوس مُثّل به هنا لابراز معنىً مجازي عن قَصْد السبيل الى الله تعالى بالارادة والاستطاعة .

إذاً ، ضاق اُفُق اهل القَدَر الذين نسبوا لله تسيير الانسان ، وبالتالي محاسبته على امرٍ قد قُدِر عليه ! وهذه النسبة تهمة بالظلم لا تليق بجناب الله تعالى ولا بالعدل الرباني .

وكان افقهم محصوراً بالتقدير الربّاني الذي حصل من ظروف وامكانات سبقت ساعة الفتنة (اي التي وُضِع بها العبد على عتبة الفتنة ليجد أمامه طريقَي الشكر والكفر) مع الدليل الرسالي من الله تعالى يدلّه على ما يرضاه مع كون العبد يملك الاختيار لأيٍّ منهما . فالحساب يكون على ما بعد الاختيار ولا يكون على التقديرات التي سبقته « وما كُنّا مُعذّبين حتى نَبْعَثَ رسولا[١٨] » . هذا هو العدل ومن ورائه ارحم الراحمين إذْ ارسل رسوله رحمةً وجعل ائمة مرشدين من بعده .

ولابدّ من التطرّق الى فضل الله تعالى بارسال رسله (عليهم الصلاة والسلام) وذلك لايضاح صلة العبد بالتوحيد . فالعبد لا يمكن له أن يحيط بشيء من علم الله تعالى عن وحدانيته مالم يتفضّل تعالى عليه بذلك . فإن تَقَبل العبدُ الايمان بهذا الحق ، كما فعل أهل الكهف ، فان الله تعالى أدرى كيف يعلم عبده بأن البعث بعد الموت حق كما حصل لاهل الكهف انفسهم بعد بعثهم من رقادهم وعِلْمِهم بمرور مئات السنين وهم رقود في الكهف الذي أوَوْا اليه وعلمهم بأن الذين اكتشفوهم سيتخذون عليهم مسجدا .. اي أن مئات السنين قد مرت وانتصر الايمان .

هكذا الله تعالى لا يضيع ايمان مؤمن . فما هو الظن برب العالمين ؟ هل يترك الانسان سُدىً بلا ارشاد وهداية ؟ كلا . فمن واقع الربوبية الكريمة ، والقدرة العالية ، والرحمة الواسعة ، والحكمة البالغة ، والعلمية المحيطة ، والعِزّة المنيعة ، والعدل

---

(١٨) الاسراء / ١٥ .

النزيه ، والأمـر النافذ ، واللطف خفياً وجهرا ، والمغفرة الطيبـة والرضوان الذي تقرّ به عيون محبيه في حياة خالدة ؛ ثم من واقع العبودية الضعيفة ذات الحاجات المتواصلـة ، والافتقار للعلـم والقدرة ، والافتقار للعزّة وفي ضلال لا دليل معـه الى مصـير مجهول مالم يدركها الرحمن بالهدى فيضعها على طريق السعادة والخلود فيها .. ماذا سيكون عليه أمر الصلـة بين علياء الرب الكريم وبين من خَلَقَ بيديه وعلّمه من علمه ؟ لابد ان أمـراً سيحصل ، وقد حصل .

لابد أن تُدرِكَ العبدَ من ربه رحمةٌ ليعوّض ضَعفـه بقوة منه ، وجهله بعلم منه ، وافتقاره بغنىً منه . كما لابد أن يَجْري على كل عبد ما يُميّز قيمة مبادرته للخير عندما تسنح له فرصة الوصول اليه ويُرشد الى طريقه ويعانُ على ذلك . والاّ فكيف يُكْشَفُ المبادرون للسعادة من الذين لا يجدر بهم نيلها ؟ ولابد للعدل الرباني ان يجعل الفرصة واحـدة برسالة واحـدة يحملها من يُمثل مرسلها . وهكذا حمل الرسل صلى الله عليهم وسلم رسالة التوحيد للبشرية صريحةَ العبارة « لا اله الاّ الله » قال تعالى : « وما أرْسَلْنا مـن قَبْلِكَ مِن رسـولٍ إلاّ نُوْحِي اليه أنّهُ لا الهَ الاّ انا فاعْبُـدُونِ »(١٩) . وقال تعالى بشأنهم « لا يسبقونه بالقولِ وهم بأمرِهِ يعملون ★ يعلم ما بين ايديهم وما خلفَهم ولا يشفعون إلاّ لمنْ ارتضى وهم من خشيته مُشفِقون(٢٠) » .

---

(١٩) الانبياء / ٢٥ .
(٢٠) الانبياء / ٢٧ و ٢٨ .

وختم الرحمن رسله بالنبي الكريم محمد بن عبدالله صلّى الله عليه وآله وسلّم مصدّقاً لما سبقه من الرسالات مع تمام النعمة وكمال الدين ورضا الله تعالى للثقلين بالاسلام ديناً ومن يَبْتَغِ غيرهُ فلن يُقبل منه .

إذاً لابد ان يتعرف المؤمن على النبوّة التي حملت له آخر رسالات التوحيد ليعرف حقّها ويصلّي على حضرة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم ويتبعَ هداها فلا يضلّ ولا يشقى . فما هي النبوة ؟ هذا ما يوضحه الباب التالي باذن الله تعالى .

الباب الثاني

النبـــوّة
مــن اجــل التوحيــد

لا يتمكن من حمل الرسالة العظيمة إلاّ من آتاه الله تعالى طــاقة تناسب عِظَم الحِمل ، وهيأه لمتطلبات تبليغها من صبر وحكمةٍ وحزم وعلم ومحامد اخــر . إذاً فالنبوّة : كفاءة خاصة مؤهلة لحمل رسالة التوحيد (اي الرسالة الربانية بتعريفه وسبل عبادته ومناسكها وما يرضيه من سلوك المؤمن في المعاملات على مستوى الفرد والجماعة في السلم والحرب وفي كل زمان ومكان).

ومن شأن هذه الكفاءة أن تكون مثالية في تنفيذ الرســالة على نفسها بالصورة المُثلى فتكون اسوةً حسنةً . ومن شأنها ان تكون ايضاً على حال من الرضا والشكر بحيث يَبْلُغان بها أسمى حالِ المحبة للمرسل العظيم فلا يبقى في اتجاهها غيرُه ولا يكون نُصبَ عينيها سواه ولا يتحرك في مبادراتها شيىءٌ إلاّ لإعلاء كلمته تعالى .

ويُغَيَّبُ منظر النبوة لتبقى الرســالة ، ويُغَيَّبُ منظر النبوة بوفاة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم في ساعة

ما ادراك ما بلغته من شدة على المؤمنين ، وتبقى الرسالة محفوظة بالله تعالى « إنّا نحنُ نزّلنا الذّكرَ وإنّا لـه لحافِظون »[1] . ولكن لا تتوفّر في من يهيئُهم اللهُ تعالى لحفظها ما كان من اختصاص الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد خصّه تعالى بالرسالة ، ورحمهم بها ؛ وخصّه بالمحبّة ، وميّزهم بدرجات ما عندهم منها ؛ وخصّه بالجاه والشفاعة ، واكرمهم بهما ؛ وخصّه بالتمسك بِسُنّتِه ، واحبّهم على مقدارهم فيها ؛ وخصّه بالصلاة عليه ، وصلى عليهم تعالى على حسبها . خصائصُ ستّ من نَقَصَ ايمانه بواحدة منها لم يكمل علمه بِقَدْرِ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم[2] . إلاّ أن هذه الخصائص ليست إلاّ فضلاً كبيراً ورحمةً من الله تعالى فهي تشير الى وحدانيته الجليلة فلا يبقى من منظر النبوة سوى نورها وهو فضلٌ من الرحمن بالرسالة المرسلة . فالخصائص (إذاً) ليست صفاتٍ الهيّةً بل فضلاً ورحمة لمن بلغته سراجاً لايصال النور اليه ولما شاء الله من تعريف بربوبيته توحيداً واقتداءً باسوةٍ حَسَنةٍ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . فالغاية الواحدة هي تقديس وعبادة الواحد الاحد . ويكون الدخول الى هذه الغاية في سفينة الاسلام ربّانها محمدرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فلايبقى في مقصود العبد من السفينة ورُبّانِها إلاّ اعتبار الفضل لله والرحمة منه

---

(١) الحِجْر / ٩ .

(٢) من موعظة في سنة ١٩٧٤ للشيخ سعيد آل گرجية وهو من تلاميذ العالم الجليل محمد الرضواني من ائمة القرن الرابع عشر الهجري في الموصل .

ثم الوفاء للربان الكريم تنفيذاً لامره تعالى « يا ايّها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما[٣] » .

ومع هذه الخصائص أُعطي النبي صلى الله عليه وآله وسلم النصرَ بالرعب مسيرةَ شهرٍ وجُعِلتْ له الارض مسجداً وطهوراً وأُحِلّت له الغنائم وأُعطي الشفاعة وبُعِثَ الى الناس كافة واعطي الصلاةَ في الصفوف والسلامَ تحيةً والاشتراك في دعائه لمن قال : (آمين) . ولم يكن في هذه الأُعطيات ليملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا بل كان يفعل ما يؤمر فاذا فعل فبالله : ينظر بالله ويسمع بالله ويبطش بالله ويصبر بالله[٤] . وفي كل ذلك يبتليه الله تعالى بلاءً مبينا . اما هذه الخصائص الست فمن الضروري للمؤمن ان يتعرّف عليها لكشف فضل الله تعالى فيها ورحمته بالمؤمنين اذ ارسل فيهم رسولاً رؤوفاً رحيما بهم .

---

(٣) الاحزاب / ٥٦ .

(٤) الصبر بالله تعالى هو أن يرى المؤمن أن الامور الجارية التي تتطلّب الصبر قد حصلت بعلم الله تعالى وتصرّف بها بالرحمة فيكون حُسنُ ظن المؤمن بربه طمأنينة يتحلى بها الصابرون . أما الصبر بالنفس فهر جَزَعٌ لأن الامور التي تصبر عليها النفس تعني أنها تجري بغير ما تهوى .

١

فالرسالة تحمل من الله تعالى الى البشرية نعمةً تامّة بكمال الدين ورضاء الله تعالى بالاسلام ديناً لنا الى يوم الدين . فقد كان التوحيد على ملة ابينا ابراهيم صلى الله عليه وسلم مُنحسِراً إلاّ في بقية من الأحناف وسهم ورقة بن نوفل الذي بشّر امّنا خديجة عليها السلام بأن الذي جاء زوجها صلى الله عليه وآله وسلم هو (الناموس) حقاً لا باطل فيه قائماً الى يوم الدين .

وقد وضع تعالى في رسالته للبشرية قواعد السعادة في الدارين إذْ أوضحت سبل العبادة وجعلتها مداراً لحياة المؤمنين في مختلف نواحي نشاطهم واحوالهم وازمنتهم واماكنهم : في تعلّمهم وتعليمهم ؛ في جهادهم وصبرهم ؛ في حلّهم وتَرْحالهم ؛ في بيتهم وعملهم ؛ في حياتهم وبعد موتهم فيما يتركونه لورثتهم . واحتجزت الرسالةُ قلوبَهم لتكون عروشاً للرحمن ، جل علاه ، مليئة بنوره ، سعيدة بحبه ، راضية (بما يجريه عليها) عنه ، خائفة من البعد عنه ، راجيةً رحمته كل حين ، جاعلةً كل ذلك من المعرفة بصفاته الحسنى معرفةً صافية به وليس بغيره (اي بنوره وليس بظلمات الاهواء المنحرفة)(٥) .

ومن خواص الرسالة أنها اوضحت سبل الرشاد وفضحت غُرُورَ وعدِ الشيطان لمن يتبع الهوى المُرْدِي في النار .

---

(٥) موضوع (النظر بنوره تعالى) في كتابي « نور على معرفة » فيه ايضاح اوسع لا مجال له هنا .

ومن خواص الرسالة انها اوردت من قصص الغابرين ما فيه عبرة لنا لِتُعرِّفَ الامةَ المؤمنةَ على ما سيكون عليه مَصِيرُها اذا افتقت اثرهم ! ولتعرِف فضل الله تعالى عليها اذ تجعل نصب عينيها قُدرتَه على من زاغ وانحرف وكفر وعصى وجادل بالباطل ليدحض به الحق ، وهيهات .

ثم جاءت صورة المصير الانساني واضحة المعالم في هذه الرسالة الشريفة الناصعة : لتضع المؤمن في موقعه مع الله تعالى وموقعه منه قرباً أو ابتعاداً بدليل وشاهد لا يخطئان وعندهما يزن بها نفسه ، ويعلم اتجاهه الى اين ؛ ولتشير الى سبل النجاة واسباب الهلاك لكي يتبع فلا يبتدع ؛ ولتوصل المؤمنين الى الرفعة من حال الى حال أفضل .

وزخرت الرسالة باسرار الامور التي تجري على الانسان كفرد ، وعلى الجماعة كشعوب واقوام . ومن وراء هذه الاسرار ينكشف للمؤمنين مدى رحمته تعالى إن ساءهم أمرٌ أو سرّهم غيره . فالمُجري تعالى قد أجرى كل ما جرى من امور وهو يُصَرِّفُها بالرحمة والحكمة فـ « الرحمن على العرش استوى »[٦] ولم يستوِ بصفة منتقم وإلاّ لما ترك على ظهرها من دابة . وهكذا ينتقل المؤمن الى حال الصبر والشكر ايماناً ورضىً ولا يزال في حاله حتى ينال بشاشة لقاء مليك مقتدر في مقعد صدق عنده .

---

(٦) طه / ٥ .

وتتصف الرسالة بأنها تعلّم المؤمنين ان لا يتعاملوا مع الله تعالى ضمن الحدود الماديّة التي تحدّ من تصوراتهم إن لم يتّسعوا الى المعرفة بالله تعالى وليس بأنفسهم • فانطلاق المؤمن الى الثقة بالله تعالى ، بشكل لا تناله ريبة ولا يحفّه اتهام ، يجعل المؤمن في حال من التوحيد فلا يرى في غير ذات الله تعالى آمراً أو ناهيا على لسان رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم فان مسّه طائف" لأمرٍ غير امر الله تعالى فهو مسّ من الشيطان أو خاطرة طائفة منه فاذا عرض الأمر على الثقة المطلقة بالله تعالى تذكّر فاذا هو مبصر بالله تعالى فيستعيذ به مما مسّه •

وتصل الرسالة بالمؤمنين الى شفاء لما في الصدور من ادواء النفس • فالداء الذي من النفس ، اذا تبصّر به صاحبه وملَك اليقين من القلب لعلاجه ، لا يؤثر في زيغ الانسان المؤمن ونزول مرتبته العظيمة عند الله تعالى • وفي هذا قال الامام عليّ ، سلام الله عليه :

دواؤك فيك ولا تَنْظُرُ
ودواؤك منك ولا تُبصِرُ
وتَحسَبُ انك جرْم" صغير"
وفيكَ انطوى العالَم الأكبرُ

وهكذا تبرز اهمية الرسالة للمؤمن في كشف موقعِهِ من رعاية الله تعالى وتكريمه له وجَعْلِه مؤهلاً لخلافته تعالى في الارض • فإنّ أحسن الخِلافةَ باتباع اوامر من استخلفه فقد

ادّى الامانة • وإن أساء فعلى نفسه قد اساء ، والعياذ بالله تعالى • وما الاساءة إلاّ اتباعُ الشياطين الذين يقفون على رأس كل سبيل غير شريعة الله تعالى يدعون الى النار بغرور الشهوات وانخداع النفس بالوعود الكاذبة •

٢

اما المحبة فهي من المقوّمات الدالّة على صحة الايمان والطمأنينة والرضى بالاسلام • وان إمام المحبين في المحبة هو الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم والمحبون هم الذين قال تعالى فيهم « يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونه[٧] » • وما نالوا ذلك إلاّ باتّباع المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم • قال تعالى « قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبّون اللهَ فاتّبِعوني يُحْبِبْكُم اللهُ ويَغْفِرْ لكم ذُنوبَكم واللهُ غفورٌ رحيم[٨] » • فبهذه الأُسْوَةِ قد أشار لنا تعالى بأن الذي يُمثّل البشريةَ في أسمى أنموذج أمام الله تعالى هو الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم • فهو العبد الذي يقوم بأمر الله تعالى (اي ينفّذ أمرَ ربه) ، وهو العبد الذي يتّجه الى ربه تعالى بقلبه هياماً بحضرته الجليلة • فهو العبد القائم الهائم • وان هذا الأمر الرباني جعل من الرسول الكريم (الذي لا ينطق عن الهوى) و (جُعِلتْ طاعةُ المؤمنين له طاعةً لله تعالى) ممثلاً عن الحضرة الالهية ، فلا يُمثّل نفسه

---

(٧) المائدة / ٥٤ .
(٨) آل عمران / ٣١ .

في شيىء من الرسالة اذ لم يحمل اليهم قبلها شيئاً منها طيلةَ عمره الذي لبثه فيهم بل مَثَّل الحضرة الالهية في توجيه البشرية نحو سعادتها وفي قيادة جحافل الايمان لإعلاء كلمة الرب العظيم • وهكذا كانت المحبةُ والقيام بالأمر الرباني مثلاً مبيناً متيناً لمن اتبع ولا يصل إليه إلاّ من اتبع وأبقى على ثباته في الدين برفق الاتباع ومُواصلة الارتفاع بالدرجات على عجلات المجاهدة والعفة والصدق والصمت • وبذلك يتم التوحيد عملاً مقترناً بصدق العاطفة ظاهراً وباطناً • فالقلب الذي يُحبُ لا يرى أمراً أعلى من أمر محبوبه • واذا علا امر الله تعالى في القلب خشعت له الجوارح اي تفذّت ما تطيق منه حباً وكرامةً •

ولم يكن في عاطفة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم لله تعالى شريك إذْ لم يتخذ خليلاً من البشر او الملائكة بل هم اهل بيت واصحاب" وامة" واحباب" من المؤمنين هو بهم رؤوف رحيم • يطيب له أن يشبعوا قبل أن يسدّ رمَقَه بما يقيم اَوَدَه ، ويحسّ بألم شوكةٍ اذا شاكت احدهم ، ويكره لهم ما يكره لنفسه ، ويقيم عليهم حدود الله تعالى فهو لا يغني عنهم من الله شيئاً • يحبهم لله اي لكرامتهم عند الله تعالى بتقواهم • وهكذا التوحيد المتميّز عنده والذي لم يتم بهذا الكمال لباقي المؤمنين لأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) الاسوة الحسنة وقد جُعلت محبتُهم له (بعد محبتهم لله تعالى) تماماً لايمانهم ومصداقاً لحبّهم لله تعالى إذ كشف صلى الله عليه وآله وسلم ذلك بقوله « لا يؤمنُ أحدُكم حتى اكونَ احبَّ اليه من وَلَدِهِ

ووالدِهِ والناس اجمعين »[٩] . وهكذا كانت المحبة النبوية في مقصودها الرباني مثالاً جعلها من خصائص النبوة الستّ المذكورة وبقيت بعده المحبة في ما بين المؤمنين رمزاً لمحبتهم لله تعالى وقبساً لمحبته صلى الله عليه وآله وسلم لربه . فالمحبةُ الصحيحة هي ما يكون لله تعالى : اي يحب المرء أخاه لأن اخاه على صراط مستقيم . فلو خرج عنه بمُحَادَدَةِ الله ورسوله فانه لن يوادِدَه اذ لا يتفق ذلك مع الايمان .

كما جعل الله تعالى المحبة الخالصة لوجهه الكريم من موجبات محبته لهم . ففي الحديث القدسي « حقّت محبتي للمتحابّين فيّ »[١٠] اثباتٌ لذلك . واذا احب المؤمن اخاه وعلم المحبوب بذلك دعا لأخيه المحب كما روى ابو داود في مسنده « أحَبَّكَ الذي احْبَبْتَنِي له » . وفي محبة الله تعالى للعبد طاقاتٌ لم يكن للمؤمن ان يمتلكها لولاها حيث بشّر الله تعالى من يحبه في الحديث القدسي الذي رواه الشيخان عن ابي هريرة « .. ولا يزال عبدي يتقرّب اليّ بالنوافل حتى احبه فاذا احببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به وبَصَرَه الذي يُبصر به ويده التي يبطش بها .. » . وفي حديث شريف غيره قال صلى الله عليه وآله وسلم :

---

(٩) رواه احمد في مسنده ورواه البخاري ومسلم وابن ماجه ، عن أنس (حديث صحيح) .

(١٠) من حديث قدسي في المتحابين والمتناصحين والمتزاورين في الله تعالى . رواه الطبراني في الكبير واحمد وابن حبّان والحاكم والضياء المقدسي عن عبادة بن الصامت .

« ان الله تعالى اذا احب عبداً دعا جبريل[11] فقال اني أُحِبّ فلانا فاحِبّه فيُحبّه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول إنّ الله يحب فلاناً فاحبوه فيحبه اهل السماء ثم يوضع له القبول[12] في الارض .. »[13] الحديث . وكيف لا يحب المؤمنون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان لسفينة نجاتهم ربّاناً خرج بها من الظلمات الى النور باذن ربه وقد اطمأنت نفوسهم الى شهامته اذ كفل اليتيم وعصم الارملة وعدل ورحم ورأف ونصح وآثر ولم يستأثر وعفّ عن رؤية اي فضل لنفسه وصرّح عفيفاً يوم كُسفت الشمس مع وفاة ابنه ابراهيم قائلاً : « ان الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكنهما آيتان من آيات الله[14] » الحديث . وجزى الله أبا طالب عن الاسلام ورسوله خيراً إذ قال فيه :

وأبيض يُستسقى الغمامُ بوجهه
ذِمارُ اليتامى عِصمةٌ للأرامل

وما كان لِلّهِ دام واتصل . والمحبة لا تكون لسببٍ غير سبب الله تعالى فهي تدور حول التوحيد إذ أنها مظهر من مظاهره .

---

(11) دعوة الله تعالى لجبريل عليه السلام هي ان يأذن له في القرب من حضرته ــ الجامع الصغير لسيوطي .
(12) وضع القبول يقصد به التحلي بالمودة والمهابة والمحبة ــ المصدر السابق .
(13) من حديث رواه مسلم عن ابي هريرة ــ حديث صحيح .
(14) رواه البخاري والنسائي عن ابي بكرة ورواه البخاري ايضا ومسلم عن ابن عمر . والشيخان عن المغيرة ــ حديث صحيح .

وتشمل المحبة عناصر المودّة والرحمة والايثار والكرم ولكنها لا ترقى الى هيام النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بربه الكريم جلّ علاه . اذ أن الذوق الذي وصله من ذلك لم يحصل لغيره . وهل عرج غيرُهُ الى السماء ؟

٤:٣

اما الجاه والشفاعةُ اللّذان جعلهما الله تعالى من هذه الخصال الستّ فلابُدّ ، من اجل التعرّف عليهما ، من التطرّق الى مفهوم الجاه بين الناس وهو : حالة يكون فيها ذو الجاه ذا حَظوة ، يكرمه الامراء والعامة (اي يكون وجيهاً) . ولا يكون الشخص كذلك مالم يكن فعلاً أهلاً لهذا الموقف الكريم بصفات وتصرفات اَكْبَرَتْهُ في عيونهم : فهو النزيه العفيف عمّا في أيديهم ، لا ينازعهم على الدنيا ولا ينازعه احد في دينه ، يُذكر اذا ذُكرت التقوى وذُكر التواضع والحلم والعلم والرفق والكرم والنصح البليغ والمنطق المُستَمَدّ من الشرع والاحكام الربانية والفراسة الايمانية ، وهو الذي ينظر الى اخوانه في الانسانية بعدلٍ في حقوقهم وواجباتهم فلا يرى صاحب الحق اضعف عنده بل اقوى حتى يُحِقّ له حقه . وفي كل ذلك هو على الخط الذي سار عليه الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم . وهذا هو الهَدْيُ المحمدي في سُنّته الشريفة والقياس عليها . فاذا كان المؤتسي برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد اكتسب هذا الجاه فكيف بالقدوة نفسها ؟ واذا كان الناس ، بضعفهم وقلّة

حيلتهم وضيق حدودهم قد أقرّوا بهذا الجاه لمن استحق فكيف بالجاه الذي يهبه المليك المقتدر ؟! ألم يقل تعالى عن سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم : « وكان عند الله وجيها »[١٥] ؟ أوَلَم يقل تعالى عن سيدنا عيسى صلى الله عليه وسلم : « وجيهاً في الدنيا والآخرة »[١٦] ؟ اوَلَم يذكر الرسولُ صلى الله عليه وآله وسلم أُعطياته التي لم تُعطَ لأحد من النبيين من قبله ومنها الشفاعة (دليل الجاه) ؟ اولم يُرفع له ذِكْرُه ؟ فهذا هو جاهه فوق كل جاهٍ لمخلوق . وقد أيّد ذلك بنفسه ــ ولا فَخْر ــ في الحديث الذي رواه احمد في مسنده والترمذي وابن ماجه عن ابي سعيد وحسّنه : « أنا سيدُ وُلْدِ آدمَ يوم القيامة ، ولا فخر . وبيدي لواءُ الحمد ولا فخر . وما من نبيٍّ يومئذٍ ، آدمُ فمن سواه ، إلاّ تَحْتَ لوائي . وانا اوّلُ شافعٍ واوّلُ مُشفَّع ولا فخر » .

وفي هذا الجاه وهذه الشفاعة يذوق المؤمن من آيات التوحيد مالم يكن سيعرفه لولاهما . فالله تعالى هو المتكبِّر الذي حَرَّم على نفسه الظلم ولكنه جعل صَلاتَه على عباده أن تسبق رحمتُه غضبَه[١٧] . والرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم أُرْسِل رحمةً للعالمين ، اي وللامم التي سبقت إخراج اُمَّتِهِ للناس ، فاذاً تكون الرحمة لهم بدليل ما جاء في سورة الانبياء (الآية

---

(١٥) الاحزاب / ٦٩ .
(١٦) آل عمران / ٤٥ .
(١٧) من حديث قدسي : « وان رحمتي سبقت غضبي » رواه البخاري في التوحيد ومسلم في التوبة .

١٠٧) : « وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين » هي رسالة التوحيد مع نبوته وشفاعته لامته والامم التي سبقتها • وهذه المِنّة الربانية كانت سبباً لتوحيده تعالى ومعرفته ومحبته • فالنبوة لا تقوم بنفسها من أجل كسب الجاه والشفاعة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو لم يطلب ذلك ، بل تقوم بأمرٍ من الله تعالى من اجل معرفته ومحبته جل علاه • ويذكر هنا قولٌ لأحد الصالحين وقد سُئل عن قيمة الولاية التي يكون فيها العبد ولياً لله صالحاً صادقاً (فضلاً عن الامامة والامام) إذْ قال : اذا عُرف سرّ الربوبية بطل سر النبوة واذا عُرف سر النبوّة بطل سر الولاية • أي ان النبوة سببٌ لمعرفة الله تعالى فلا قيام لها بنفسها بل بربّها الذي له الخلق والأمر • فالمعروف بها هو الله تعالى • وكذلك الولاية من بعد النبوة فهي قائمة بأمر الله تعالى ليجعل لمن يهديهم أولياء مرشدين ، اي ليبقى التصحيح مستمراً في السلوك الى الله تعالى ، فلكل زمان دولة ورجال •

٥

واما الصلاة على الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم فقد امر الله تعالى المؤمنين بأن يُصلّوا عليه بعد أن أخبر عن ذاته الجليلة تعالى وعن ملائكته بأنه واياهم يصلّون على النبي « إنّ الله وملائكته يُصلّون على النبيّ يا أيها الّذينَ آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما[١٨] » • وقد اخرج الطبراني في الكبير عن

(١٨) الاحزاب / ٥٦ .

الحسن عليه السلام قال : قال بعض اصحابه (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) « يا رسول الله أرأيت قـول الله تعالى : ان الله وملائكته يُصلّون على النبي يا ايها الذين آمنوا صلّوا عليـه وسلّموا تسليما ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ هـذا لَمِنَ المكتوم • ولولا أنّكم سألتموني ما اخبرتكم • إن الله عزّ وجـلّ وَكَلَ مَلَكَيْنِ لا أُذْكَرُ عند عبدٍ مُسلـم فيُصلّي عليَّ إلاّ قال ذانِكَ المَلَكانِ : غَفَرَ اللهُ لك وقال اللهُ وملائكتُه جواباً لِذَيْنِكَ المَلَكَيْنِ : آمين » • وروى الامام احمد في مُسنده عن ابن مسعود قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وآلـه وسلم ونحن في مجلس سـعد بن عبادة فقال له بشير بن سعد : قد أُمرنا أن نُصلّيَ عليك فكيف نصلّي عليك ؟ قال « قولُوا اللهمّ صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل ابراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل ابراهيم ، والسلامُ كما علِمتُم » • وفي لفظ آخر للامام احمد ورد الحديث : فكيف نصلّي عليك اذا صلينا في صلاتنا ؟ •• الى آخر الحديث •• وبهذا وجبت علينا الصلاة عليه واكّد علينا الصلاة على آله معه صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا ما سار عليه السلف الصالح في كتبهم واقوالهم •

كما روى الامام احمد في مسنده عن الصحابي فضالـة بن عبيد رضي الله تعالى عنه قال : سَمِع رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً يدعو في صلاته ولم يَحْمَدِ اللهَ ولم يصلِّ على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال رسولُ الله صلى الله

عليه وآله وسلم : « عَجِلَ هذا » . ثم دعاه وقال له اذا صلّى فليبدأ بتحميد ربّه والثناء عليه ثم يصلّي على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم يدعو بعدُ بما شاء[١٩] .

فماذا تعني الصلاةُ على الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ؟ . إنها في معناها (هنا) أن نطلب من الله تعالى أن يرفع منزلته ويعظم شأنه ابداً بدوام مُلْكِه . وفي معناها في غير هذا المكان تدور حول تعظيم الشأن أيضاً . اي ان الصلاة من العبد لله تعالى هي تعظيمه تعالى في القلب وفي كل زمان ومكان ، واذا صلّى تعالى علينا وأَمَر ملائكته بالصلاة علينا فقد رفع شأننا في منازل المؤمنين اذ أن صلاته تعالى علينا لها علة ارادته باخراجنا من الظلمات الى النور . وهذا ما صرّح به تعالى بقوله « هو الذي يصلّي عليكُم وملائكته لِيُخْرِجَكُم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيماً »[٢٠] .

وان المقصود بالدعاء في الصلاة على النبي صلّى الله عليه وآله وسلم هو الله تعالى وهذا ما يدور في غاية التوحيد ويتجلّى فيه التوحيد في بيان فضله ولا فضل لغيره في ما رحم . وهذا ما كشفه تعالى في قوله « ولئن شِئْنَا لَنَذْهَبَن بالذي اَوْحَيْنَا إليك ثُمّ لا تَجِدُ لَكَ به علينا وكيلا (٠) إلاّ رحمةً مِنْ رَبِّكَ إنّ فَضْلَهُ كان عليك كبيراً »[٢١] .

---

(١٩) رواه ايضاً ابو داود والترمذي والنسائي وقال حديث صحيح.
(٢٠) الاحزاب / ٤٣ .
(٢١) الاسراء / ٨٦ و ٨٧ .

كما أن الصلاةَ على النبي صلى الله عليه وآله وسلم قُرْبٌ من الله تعالى لأنها تُدني مجلس المصلين عليه منه وهو في قرب من ربه تعالى فيتوفق المُتَقَرِّبُ المؤمن الى مَنْزِلةٍ عالِمةٍ أي تصفو بها نظرة صاحبها للحقيقة اذ يكون قربُه مدعاةً لنظره بنور الله تعالى اي ينظر ويسمع ويبطش بالله تعالى .. قال صلى الله عليه وآله وسلم من حديث في الصلاة عليه يوم الجمعة « فمن كان أكْثَرَهُم عليّ صلاةً كان أقْرَبَهم مني منزلة »[٢٢] .

٦

امّا التمسّك بالسنة الشريفة فقد جعل تعالى فيه سَبَبَ محبته لمن يتبعها وسبباً للمغفرة وعداً مفعولا . « قُلْ إِنْ كُنتُم تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ ويَغْفِرْ لكم ذُنُوبَكُم واللهُ غفورٌ رحيم[٢٣] » . وجعل تعالى من هذه السنة الشريفة أفضلَ سبيل إليه لأنها سنّةُ خير من عرفه وعرف السبيل الصحيح اليه وهي : اقواله ، وقد رضي له قولا ؛ وهي افعاله ، وقد دخلت التاريخ في ابهى الصور ؛ وهي أخلاقه ، وقد قال تعالى له « وإنّك لعلى خُلُقٍ عظيم » ؛ وهي أحواله ، وقد صارت اسوةً حسنة . وهكذا فهي إذاً افضل تنفيذ لأفضل أمر

---

(٢٢) روى البيهقي في شعب الايمان عن ابي امامة قوله صلى الله عليه وآله وسلم « أكثروا من الصلاة عليّ في كلّ يوم جمعة فإنّ صلاة امتي تُعرَضَ عليّ في كل يوم جمعة فمن كان اكثرهم علي صلاةً كان اقربهم مني منزلة » .

(٢٣) آل عمران / ٣١ .

من أجل أفضل عاقبة • ولا يدخلها طعن" لأنها موجّهة بالوحي حسب ما ارتضاه تعالى وتحمل الصفات الوافية لكمالها بأنّها : ــ

ــ خالية من التكلّف •

ــ قابلة للتطبيق على حسب الاستطاعة •

ــ تشترط الرفق في التوجيه والتواصي •

ــ تدل على صدق المتمسكين بها بقَدَر تمسكهم ، وعلى حُبّهم بقَدَر إحيائهم لها •

ــ مآلها التوفيق من غير فشل ؛ والنصر أو الشهادة في حالات الثبات عليها ؛ والمهم هو عزّ المؤمن في الدارين •

ــ تَسُدُّ الطريق على البِدَع والفساد •

ــ تُزيل القلق من النفوس والحيرة من الفكر لوجود الثقة بصحتها والوضوح في منهجها • وهذا ما ترتكز عليه سعادة الانسان النفسية والفكرية •

ــ تصلح في مختلف مراحل الحياة ومختلف ادوار الانسان واحواله : اي من حيث العمر ومن حيث الموقع كأب او زوج او وَلَد ؛ ومن حيث ظروف العيش من فقرٍ وغِنَىً، وقوة وضَعْف، وصحة وسَقَم ، وخوف ورجاء، وسرّاء وضرّاء • اينما حلّ وارتحل •

ــ وهي في كلّ ذلك توحيد" في عبادة الله تعالى حيث يبرز معنى استهداف المولى الخالق جلّ علاه • فلا يكون للسُّنة اثر" إلاّ التوحيد ولا يُختص بغايتها سواه تعالى فان النبي الذي حمل الرسالة يموت • وقد مات صلّى

عليه وآله وسلم (وإن كان في وراثته من بعـده حياً في المحبة والذكر والاقتداء) • فمن أحيا هذه السنة فقد احب النبي صلّى الله عليه وآله وسلم ومن احبه كان معه في الجنة • وهذا ما ايده بقوله : « من أحْيَى سُنتّي فقد أحَبّنـي • ومن أحبّني كان معي في الجنـة »[٢٤] •

وهكذا تبقى عبادةُ الله تعالى (اي توحيده) مثاليةً على ضوء هذه السنة الشريفة • فقد تمسك احبابه من الرعيل الاول من الصحب والتابعين بمنهجها فأعزّهم الله تعالى وبقي عزّ المسلمين على قَدَر تمسكهم بالسنة الى قرون متأخرة من الصالحين حتى إذا خَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، سلّط الله تعالى عليهم أنْتَنَ البشر واخبثهم من الكفَرَة الصهاينة فدنّسوا الأرض بعد ما كانت مقدسة ، ولم تُدَنسْ إلاّ بعدما ابتعد أهلها عن الاسلام بأهوائهم المبتدعة التي نجّست الارض المقدسة • ولم يأتِ أمرُ اللهِ فيهم عبثاً • فقد هيأ تعالى لهم من وجّههم الى امور دينهم بالاجتهاد المبني على الكتاب والحكمة النبوية في سيرته وحديثه وأمره ونهيه فَظَهر اجتهاد أئمة المذاهب ليوضحوا للمسلمين امور دينهم ولم يكن يدور في خَلَدِهِم أنْ ستكون إيضاحاتُهم مَذَاهِبَ يُصَنّفُ المسلمون على اساسها • ان المجتهدين لم يجتهدوا من أجل أن يبتدعوا شيئاً جديداً بل حصروا اجتهادهم في ايضاح معالم الجماعة الاسلامية ومَنهجها ومَنهج الفرد في سلوكه في جماعته وعائلته

(٢٤) رواه السجزي عن انس .

ومع نفسه ، في صلاته وفروضه الاخرى وفي ماله وولـده ضمن حدود ما حصل في أيّام الراشدين عليهم السلام • ولم يكن أحَدٌ من أئمة المذاهب يعلم انه سيُطلق اسمُه على مذهبه بل كان همّ كلٍّ منهم اللجوء الى الآيات البيّنات والسُّنة الشريفة لتحديد معالم السلوك الاسلامي على ضوئها ، وليسير وُفْقَها من شاء من المسلمين ، وليبقى اسم الاسلام والمسلمين بدون تمييز بين مسلم ومسلم تنفيذاً لقوله تعالى في سورة آل عمران : « ان الدينَ عند اللهِ الاسلام » • وهذا ما يدعو في زماننا هذا الى ترك تصنيف المسلمين على اساس مذاهب اولئك المجتهدين الاخيار ، جزاهم الله تعالى عن الاسلام وعن المسلمين خيراً ، بل ايضاح الأمر ليأخذ المسلم بالايسر له وبما هو أدعى لخشوع قلبه وقـدرة جوارحه وراحة نفسه حسب تحمّله العقلي • وهكذا يكون اختلافُ امة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم رحمةً لها(٢٥) • فالامور المطلقة التي اختلفت فيها المذاهب ما هي إلا أن تكون رحمةً لمن يأخذ بها او رحمةً لمن يتركها حسب تحمله العقلي وخشوع قلبه ورضى نفسه ولكنها في كل حال ليست خلافاً على ذات الله تعالى فان المسلمين لله لا يختلفون عليه بل يتجهون اليه قلباً وتصديقـاً بالعمل وفق القرآن والحكمة النبوية والسيرة الشريفـة وليس

(٢٥) روى نصر المقدسي في (الحجة) وروى البيهقي في الرسالة الاشعرية بغير سند قولاً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : « اختلاف أمتي رحمة » . واورده الحليمي والقاضي حسين وامام الحرمـين ولم يصل تخريجه فيما عثر عليه من كتب الحديث .

بانشغال العباد بسيرة العباد الذين صححوا لهم طريق العبادة بالسلوك الذي اوصلهم اجتهادهم الى صحته . فكما أن التمسك بالسنة لا يعني عبادةَ صاحبها صلى الله عليه واله وسلم بل توحيد المعبود تعالى على منهجها فكذلك يكون التمسك بما اوضحته المذاهب منها يستهدف التوحيد وليس تفضيل مجتهد على آخر والانشغال بذلك عن الله مما يؤدي الى الخلاف على عكس الانشغال بالله تعالى مما يؤدي الى الاعتصام بحبله المتين « فهدى اللهُ الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنِهِ واللهُ يهدي من يشاء الى صراط مستقيم »(٢٦) .

سَبَقَتْ هنا الاشارةُ الى الاعتصام بحبل الله الشريف المتين ألا وهو : إنفاذ امر الله تعالى على افضل استطاعة في اتباع السيرة المحمدية والسيرة الراشدة والاجتهاد الدائر في حدود ذلك وفتح الباب لشورى المسلمين في حالات حصول الضرورات كقيام مصلحة مرسلة للمسلمين بعد سدّ الذرائع . وهذا يعني ان يتخذ الامام قراراً لما لابدّ منه اقتضته مصلحة الاسلام بعد استنفاد كافة السبل الشرعية لكي لا تبقى ذريعة تكون حجة على الامام في تصرفه . وهذا الامر معروف لرفع مكروه شديد . ولكن الاسلام لا يقبل في ذلك خيانةً ولا إباحة للحرمات ولا اعتداءً فالله تعالى لايحب الخائنين ولا يحب الفساد ولا يحب المعتدين .

---

(٢٦) البقرة / ٢١٣ .

وهكذا نجد أن الامامة في الاسلام أصل" ضروري لتصحيح المعاملة مع الله تعالى على وفق السنة وليس اصلاً بذاته لذاته بل للتوحيد والتوحيد فقط .

إن اول ما تتطلبه صحة الامامة هو العصمة بالله تعالى وأن يكون المجتمع الاسلامي نفسه معتصماً به تعالى . وهكذا ننتقل الى الامامة والعصمة باللـه تعالى في كل شؤونها كما سيعرضه الباب التالي بعونه تعالى .

الباب الثالث

الامامة المعتصمة بالله تعالى

ومعنى العصمة وآثارها

لقد كان الرسول الكريم صلّى الله عليه وآله وسلم وليّاً للأمر وله القضاء وقيادة الجيش وتوزيع المال واخـذه • وكان راعياً اجتماعياً للمجتمع الاسلامي بفقرائه واغنيائه • يعرف حقهم فلا يبخس منه شيئاً • ومع هذا كان هو العابدَ المثالي بالفروض والنوافل وباتجاه قلبي حنيف يروي به شوق نفسه الصافية الى رضى خالقه شاكراً لأنعمه لا تطرقه غفلة عنه • لا يعرف لغـير الحق رحابةً في صدره ولا للمجاملة مجالاً إذا اقام حدود الله أو قضى بين الناس • ولا يبتّ في امر إلا وقـد كشف الله تعالى له طريقاً اليه •

إلاّ أن وراثة هذه الامور الجليلة بعد الرسول الكـريم صلّى الله عليه وآله وسلم قد توزّعت على عدّة كواهل في آن واحد • فقد امر الله تعالى أن ينفر من كل فرقة طائفة ليتفقّهوا في الدين • وامر باقامة حدوده • وامر بقيادة المجاهدين وامر بالسير

في حزم وشجاعة وفي حياءٍ منه وعلى علم وهدى في تسيير الامور كافة للدولة والمجتمع والفرد . ولم يشترط تعالى مستوى النبوة لهذه الوراثات والولايات على امور المسلمين ، بل جعل النبوة اسوةً حسنة لهم ، وامرهم بعبادته تعالى ما استطاعوا . وهكذا تعدّدت شخصيات وراثة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ولم يكن كل وارث متحلياً بالمحبة والشوق والتعبد النبوي. فقد ورثه شخصيات في المحبة والهيام بالحضرة الالهية هي غير الشخصيات التي ورثته في ولاية امور المسلمين والتحكم في رقابهم واموالهم .

وهكذا المجتمع السائر على طريق الشريعة الصحيح في سلوك مقصود في النية محاط بالعزيمة محفوظ بالاستقامة والاستطاعة والهمة . وقد احتوى على جوهرة التوحيد واتجه بنهج واضح نحو اعلاء كلمة الله تعالى مؤتسياً بالصفات والخصائص التي اجتمعت في الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم مع الفارق في مستواها النبويّ الرائد .

وسارت عجلة الدولة الاسلامية باتباع لا ابتداع فيه حتى ظهرت البِدَعُ في بعض اولياء الامور بغياً بينهم واتباعاً لاهواء التسلط والتمييز بين مسلم ومسلم وظهرت اساليب مبتدعة في سياسة الدولة من اجل المناصب فتميز اولئك البقية المحافظة على السلوك السليم باتباع السُنّة الشريفة على منهج الراشدين الذين ختم الله تعالى بهم المثل الصحيح فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم : « عليكم بسنتي وسنّة الخلفاء الراشدين من بعدي :

عضّوا عليها بالنواجـذ[1] » وقال « لا تزال طائفـة من امتي ظاهرين على الحـق حتى تقوم الساعة[2] » . وقال « لا تزال طائفة من امتي قوامة على امر الله لا يضرّها من خالفها[3] » .

اما الاعتصام بالله تعالى فإنه يورث فضله تعالى في حمايـة الدولة من عوادي الزمن ، وحماية المجتمع من الفساد . ويُقصد بذلك : حماية الفرد من الضلال والزيـغ ؛ وحماية الاقتصاد من الهدم ؛ وحماية العلم من الضياع ؛ وحماية الحضارة الاسلاميـة من دخول ثقافة اهل البدع من الملل الاخرى ؛ وحماية الغيرة من الاستهتار ، وحماية العلم النافـع من الجهل او العلوم الضارة ؛ وحماية التراحم والتوادد والامر بالمعروف والنهي عن المنكر من آفاتها .

لقد اورد القرآن الكريم عِبَرَ الاقوام التي سلفت تحذيراً لهذه الامّة من اضاعة ما يلي :

١ ــ الجهاد .
٢ ــ الاتحاد والتماسك .
٣ ــ العبادات .
٤ ــ العلم النافع .
٥ ــ المال (اي توجيه الاقتصاد على وجه الصحة) .
٦ ــ مكارم الاخلاق .
٧ ــ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

---

(١) رواه احمد في مسنده وابو داود في السنن .
(٢) رواه الحاكم في مستدركه عن عمر .
(٣) رواه ابن ماجه عن ابي هريرة .

وحذّر من نتائج هذه الاضاعة بما حصل لمن اضاعها ومن ذلك ما يلي : ــ

١ ــ « **لُعِنَ الذين كفروا مِن بني إسرائيل على لسانِ داوُدَ** وعيسى ابنِ مريم ذلك بما عَصَوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يَتناهَونَ عن منكرٍ فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون[٤] » .

٢ ــ مزّق الذين كفروا بأنعم الله تعالى في سبأ وجعلهم احاديث للناس .

٣ ــ توعّد الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات بأنهم سوف يلقَوْنَ غيّاً مالم يتوبوا .

٤ ــ يضل الله الظالمين فلا يجعل لهم ولياً مرشداً الى علم ينفعهم .

٥ ــ يحبط تعالى اعمالهم ويجعلها كسراب « ذلك بأنّهم كَرِهُوا ما أنزلَ اللهُ فأحْبَطَ أعمالَهم[٥] » . فلا يجدونها إلا كالكذب الذي كذبوه عندما خادَعُوا الله تعالى بالكذب على الناس . أليس الكذب كالسراب لا حقيقة له ؟

٦ ــ يخزيهم الله تعالى خِزْيَ الدنيا برفع مكارم الاخلاق منهم ويعذبهم في الآخرة « ومِنَ الناسِ من يُجادِلُ في اللهِ بغيرِ علم ولا هدىً ولا كتابٍ منير . ثانيَ عِطْفِهِ ليُضِلَّ عن سبيلِ الله له في الدنيا خزيٌ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق .[٦] » .

---

(٤) المائدة / ٧٨ و ٧٩ .
(٥) محمد / ٩ .
(٦) الحج / ٨ و ٩ .

٧ ــ تكون فيهم فتنٌ بسبب رؤيتهم المعروف منكراً والمنكر معروفاً فيتولّد العنف فيما بينهم بتسلّط بعضهم على بعض كما حصل بين بني العباس وبني امية ثم من بعدهم بين دول الطوائف .

٨ ــ واخيراً يُسلّط عليهم اعداءهم من شرار الامم إذا ارادوا تحكيم غير دين الله فيهم كما حصل للدولة العثمانية عندما اتجهت الى (الاصلاح) الذي صوره لها الغرب فكان سراباً أذهب المُلْك من أيديهم .

إذاً فلا ملجأ من الله تعالى إلاّ اليه . وتكون العودة اليه بتصحيح السلوك نحوه بالعصمة . فما هي العصمة بالله العلي القدير ؟

انها حالة يكون عليها امامُ المسلمين واولياءُ امورِهم وعامّتُهم في كَنَف الاسلام إبتداءً من التوحيد ، وتصديقاً بالرسالة ، وعملاً بالجهاد ، واقامةً للعبادات كالصلاة والصيام ودفع واخذ الزكاة والأخماس (المأخوذة من الفيىء والغنائم كما نصت عليه الشريعة) ، ثم الحج والعمرة ؛ فاذا بالاسلام قائم على وجه الصحة لانه استند على اركانه الصحيحة فيكون لأِسمِهِ معنى التحقق وليس مجرّد الاسم فقط . وللعصمة عوامل عديدة من اجل ثباتها بالله تعالى وفيما يلي عدد منها :

ان اول عوامل هذه الحالة المعتصمة هو « وأعِدّوا لهم ما استطعتم من قوةٍ[٧] » اي حماية الدولة من أعدائها بكافة

(٧) الانفال / ٦٠ .

امكانياتها التي توجّه الى اولوية التحصين والدفاع والقوة على ردّ العدوان بالجهاد الذي يُرهِبُ أعداءَ الله عن قوة باهرة جاءت بالتضحية بكل الاستطاعات العلمية والفنية والاقتصادية والبشرية • ولا تتم هذه الحالة المثالية لكرامة الانسان المسلم الاّ بالالتزام بالخط الشرعي الذي كتب الله تعالى له التوفيق « يا ايها الذين آمنوا إن تنصروا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أقدامَكم[٨] » و « وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين[٩] » •

وتتم حالة العصمة في تكاتف العدد الاكبر من المجتمع الاسلامي على اعلاء كلمة الله تعالى ويجعل الله تعالى لهم ولياً نصيراً قائما بامره هائماً بحضرته • فإن تناقص عدد الناهضين بهذه العصمة ، كأن يكثر في ذلكم المجتمع اهلُ الزيغ ومُتّبِعو الاهواء المخالفة للشريعة والمبتدعون ، فان الله تعالى يسلّط من يقوم على امورهم بشدة وظلم استحقوهما بقسوة قلوبهم على الاسلام • وينجّي الله اولئك الهائمين بحضرته الثابتين في سلوكهم على منهجه • فان كَثُرَ الخَبَثُ قامت فتنةٌ حذّر الله تعالى منها : « واتّقوا فِتنةً لا تُصيبَنّ الذين ظلموا منكم خاصّةً[١٠] » كما سبق وجاء في الفقرة السابقة •

والعامل الثاني في حالة العصمة بالله تعالى هو توجيه الاقتصاد لاعلاء كلمة الله تعالى • ولا يكون ذلك إلاّ بتوفير الفائض ، وهذا لا يتم إلاّ بتحاشي عوامل الهدم الاقتصادي

(٨) محمد / ٧ .
(٩) الروم / ٤٧ .
(١٠) الانفال / ٢٥ .

وتشجيع عوامل البناء الاقتصادي • ويوضع منهج لذلك من شأنه ان يُقلّل فيه عوامل الهدم الى ابعد حد فلا تقوم هناك صناعات من شأنها تضييع الطاقة البشرية والمال بالبذخ والترف والتبذير فان مثل هذه الصناعات تقوم على الاستيراد ويعني ذلك اضاعة ثروة بدون بناء بل لنخر المجتمع • و (الترف يزيل النّعم)[11] •

فاذا شجعت الدولةُ معاملَ البناء كالأجهزة المتطورة والمنسوجات والاسلحة والمعامل الانتاجية والعجلات وتصنيع الزراعة وما اليها من نشاطات انتاجية بقصد توفير الضروري للاستهلاك البشري وتوفير الفائض للتصدير فان الخطّ البياني للاقتصاد سيتجه نحو حصول الفائض في الصناعة والزراعة وهذا يعني تنشيط التجارة الاسلامية المتسمة بالتعاون والرحمة وحفظ الحقوق • وهكذا تتوفر الحماية للعملة الاسلامية بحيث تكون سلعةً محترمة تتنافس الملل على التعامل بها فتكون احد عوامل توفير الفائض كسلعة لها سعرُ بيعٍ أكثرُ من سعرِ الشراء •

والعامل الثالث في العصمة هو ثبات الدولة في علاقاتها مع الملل الاخرى على اساس الدين اولاً وآخراً • بحيث تكون تلك المِلل على علم تام بخطواتها التي تتخذها في علاقاتها مع الدولة المعتصمة بالله تعالى فهي تدرك ان اي تحرّشٍ بسيادة الدولة الاسلامية يعني هبّة رجل واحد وبروز الاسلام كلّه للكفر • وان

---

(١١) جرى على بعض الالسن انه حديث شريف ولم اعثر له على أصل •

المسلم يستحيل عليه أن يجري في عروقه دمٌ ، ودينـه في خطر ، إلاّ وأرخص ذلك الدم لازالة الخطر • فهم •• اي الملل الاخرى — يعلمون ان الاعتداء على الوطن الاسـلامي يعني قيامَ الجهادِ فرضَ عينٍ على كل مسلم ومسلمة بقدر تكليفه واستطـاعته في حدود ما رسمته الشريعة وما تقتضيه المبايعة بالنفس والمـال • وهكـذا تكـون الدولة المهدّدة قـد أعدّت العـدة والعَدَد والتماسكَ والإمداد الذي لا ينضب وقيام حالة النصـر الرباني ضد كل بادرة اعتداء على المسلمين بما يظهره الله تعالى من هيبة للدين ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : « نُصِرتُ بالرعب مسيرة شهرٍ[١٢] » •

كما تعلم تلك الدول والملل ان الدولة المعتصمة بالله تعالى لن تخون عهدها ولن تعتدي بدون مبرر ولا تؤوي من يظاهرونها ولا تتآمر سراً على منكرٍ أو عـدوانٍ ولا تُسلّم مظلوماً ولا تبطش بعدوٍّ تقهرُهُ ولا تغتصب بغير حق ولا تتهاون في حق ولا تُداهن أو تجامل في دينها وعزّتها وحـدود الله تعالى • كما لا تخذل متحالفا لا ينقض هو العهد اولاً ، ولا تُحِقّ باطلاً ولا تسمح بمحرَّم في أرضها ولو مروراً بها • ولا تعين على الحرام ولا تتعامل بالربا ولا تتصيد بالماء العكر •

كما تعلم تلك الملل أن الدولة المعتصمة بالله تعالى لا تقف مكتوفة الأيدي في إغاثة الملهوف والمنكوب واقالة العثرات واقامة الصلح المشرّف ، ونصرة الضعيف المظلوم ، والنصح في كل أمر •

---

(١٢) من حديـث في ما أُعطي صلى الله عليه وآله وسـلم • رواه البخاري ومسلم والنسائي عن جابر — (حديث صحيح) •

بكل هذا تبني الدولة المعتصمة بالله تعالى علاقاتها بسياسة نظيفة خالية من النفاق والخيانة ومن تَقَلُّب الاتجاهات بالمراحل والظروف المتقلبة بمكرٍ سيىء • فلا تكـــون النتيجة إلاّ عاقبةً سليمة مرفوعة الرأس •

والعامل الرابع في ثبات العصمة هو وضع مناهج التعليـــم باعطاء الاولوية لعلوم القرآن الكريم والتقدم العلمي في الميدان التقني والصناعي المتطور للاعداد الجهادي بحيث تدور كل المناهج حول هدف واحـــد هو إعلاء كلمة الله تعالى • فتوضع المناهج العامة للمـــراحل الابتدائيـــة والمتقدمة بحيث لا تضيع سنوات الرسوب سدىً من أعمار الشباب وذلك بتقليص فترات المرحلة الأبتدائية والمتوسطة والاعدادية (الثانوية) إلى أقل حد ممكن تمهيداً لمراحل الدراسة المتخصصة التي تُبْحَث جيـــداً لتأهيل وتعليم اولئك الذين تبدر منهم بوادر التفوق والتقدم الدراسي • أما الذين لا يتمكنون من الدراسة المتخصصة فيتم توزيعهم على مجالات التخصص العملي (غير الدراسي) للتدريب على مختلف الفعاليات البناءة المثمرة لاقامة الاقتصاد المبني على الاتقان والخبرة من أجل توسيد الامور الى اهلها بعدالة تبعث الهمة وتقنع الضمائر وتسدّ الثغرات بين الطبقات في المجتمع • ويجـــدر هنا التطرق الى الاجور العادلة ، بحيث لا تؤدي الى خلق طبقة متميزة بالثراء عن طبقات ذوي الطاقة الفطرية المحدودة ، كما يحصل من استبداد عبيد رؤوس الاموال ذوي القلوب القاسية المتجمدة والعياذ بالله تعالى •

والعامل الخامس في ثبات العصمة بالله تعالى هو الشورى التي امر الله تعالى بها رسوله صلّى الله عليه وآله وسلم « وَشَاوِرْهُم في الأمر[١٣] » والمقصود بها هنا اشراك اهل الرأي والعلم الذين يركن اليهم الشعب في مجريات التشريع والقرارات المهمة لثبات السلوك في حدود الشريعة مع إعطاء حق القول الفصل للامام المعتصم بالله والذي بايعه المسلمون على السمع والطاعة ما اطاع الله تعالى فيهم . قال تعالى « فاذا عَزَمْتَ فتوكل على الله ان الله يحب المتوكّلين »[١٤] . اي لا تخرج عن الشريعة .

والعامل السادس في ثبات العصمة هو الضمان الاجتماعي ، بمُختَلَف صوره المعاشيّة والصحية والسكنية ، في اسلوب يضمن زيادة دخول ذوي الدخل المحدود طردياً مع زيادة التضخم بالتوازن مع الضرورات ذات العلاقة بحيث لا يلوح شبح الفاقة وتفسد الضمائر بالكسب الاسود .

والعامل السابع في ثبات العصمة هو مراقبة القائمين على امور التجارة والصناعة والزراعة والتعليم من قطاعات خاصة ومراقبة الادارات الحكومية بحيث لا يُفسح المجال للاستغلال الفردي وتنفيذ الاطماع الفردي لضعاف النفوس مما يؤدي الى التسلط الاداري والفساد بالرشوة والشهوات المحرمة . وهكذا لابد من تأسيس جهاز نزيه للحسبة وإفساح حرية الصحافة وفق شروط خُلُقيّة لكي تكون موثوقة بلا سلبيات تعيق سير العصمة

---

(١٣) و (١٤) آل عمران / ١٥٩ .

وتضعف قوى المجتمع وتذهب ريحه . فاذا لم يُضْرَبْ بيد الشريعة على البدع والانحرافات والسلبيات فإنّ الله تعالى سيتخلّى عن تأييد من يخرج عن امره وبذلك ستكون ثغرات للمتسلطين من شرار الناس لكي ينفذوا منها الى الحكم او الى الخيانة من أجل الحكم كما حصل في حالة المسلمين قبل غزو هولاكو لبغداد . وعندما يتسلط شرار الناس يكون الاسلام غريباً والملتزمون به غرباء وتحصل الفجوة بين الرعية والرعاة فيتولد العنف من جانب ليعقبه عنف انتقامي من الجانب الآخر ، وهذا أبعد ما يكون عن الشريعة الحنيفة وعن قوله تعالى « رحماء بينهم »[١٥] .

والعامل المتواصل في ثبات العصمة على مرّ الدهور هو عامل التقوى المقترنة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فان اختلف الأمر عن هذا في الارض فان الفتن تكون شديدة يبات الحليم فيها حيران ، والعياذ بالله تعالى . قال تعالى « ما يفعلُ اللهُ بعذابكم إنْ شكرتُم وآمنتم وكان الله شاكراً عليما »[١٦] .

---

(١٥) آخر سورة الفتح .
(١٦) النساء / ١٤٧ .

الباب الرابع

المسلمون

اَمَرَ تعالى في سورة الانعام رسوله الكريم صلّى الله عليه وآله وسلم بقوله « قُلْ إنّ صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين ❋ لا شريكَ لهُ ، وبذلك أُمِرتُ وأنا اوّلُ المسلمين »(١) . ومعنى اول المسلمين بالنسبة لنا هو ان لا نتردد في اسلام الوجه لله تعالى وتفويض الامر اليه . كما امره تعالى في سورة الزمر بقوله « قُلْ إني امرتُ أن أعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً له الدينَ وامِرتُ لأِنْ أكونَ أوّلَ المسلمين . قل اني أخافُ إنْ عَصَيْتُ ربي عذابَ يومٍ عظيم . قل اللهَ أعبُدُ مُخلِصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه ، قل إنّ الخاسرين الذين خسِروا أنفُسَهم وأهليهم يوم القيامة ، ألاَ ذلك هو الخُسرانُ المُبين »(٢) . وقد جعل تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم اسوة حسنةً لنا . واول ما يتبادر الى ذهن المقتدي به هو الغاية من هذه الحالة ألا وهي العبادة ، اي التوحيد . فاذا

---

(١) الانعام / ١٦٢ و ١٦٣ .

(٢) الزمر / ١١ ــ ١٥ .

بالرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم سبب" يتخذه المسلم للوصول الى الله تعالى كما سبق بيانه • وهكذا لا يبقى للرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ، من إقتداء المسلمين به ، تمييز" عن البشرية مثلهم « قل انما انا بشر" مثلكم يوحى اليّ أنما الهكم اله" واحد[٣] » فكان بما أُوحِيَ اليه من التوحيد وصِفة العبادة وصفة الاعمال الصالحة وبما قام به من حدودها بشيراً ونذيراً ورُبّانا قائداً نحو النجاة • فاذا بالمقتدي ينجو من غير أن يكون له علم بذلك قبل الاقتداء • فاذا نجا الناجون بهذا الاتباع طلبوا ممن وصلوا اليه تعالى أن يجزيه خيراً عنهم • واذا بمعنى « صلّوا عليه وسلّموا تسليماً » يتجلّى للفهم كيف علّمنا تعالى ان نشكر الربّان ونطلب رفعته وعلوّ منزلته عند ربه الكريم المقتدر وإن كانت الغاية من الرحلة هي الوصول الى الله تعالى عبادةً وإخلاصاً وتوحيداً في القصد كما سبق شرحه •

واول ما يتبادر الى ذهن المؤمن المسلم بعد ذلك انه مُقبل في الاتباع على احوال تتناسب وحاله وما يسّره اللهُ تعالى له • فاذا ابتُلي المؤمن بشدة ذكر بلاء الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وكيف كان يخشى في البلاء على قُربِهِ من مولاه فيقول له « إن لم يكُن بك غضب" عليّ فلا أُبالي »[٤] • وكيف كان لا يرى صلى الله عليه وآله وسلم لنفسه وجوداً مع ربه إذ انه لما رمى المشركين قال تعالى له « وما رميتَ إذْ رَمَيْتَ ولكنّ اللهَ

---

(٣) آخر الكهف .

(٤) من دعائه ربه في الطائف بعد شدة عاناها من اهلها بعد دعوتهم للاسلام قبل الهجرة (كتب السيرة) .

رمى »[٥] . وهكذا يتأدب في مسيره مع تسديد الله تعالى ويتقبل اوامره ليُسعَدَ بتنفيذها وتبليغها ويدعو الله تعالى في الاضطرار وفي احوال الرحمة ويثق باغنائه تعالى له وبكفايته وتوليه له . يسوق له الخير ويدفع عنه الضر ويمنع الشر ويُلقّنه الحُجّة البالغة ويعلمه القول الفَصل وينبئه عند التحذير مما سيكون من عاقبة وعند التبشير بالجنة لمن استقام . يختار له الآل نعم الآل والصحب نعم الصحب والامة خير الامم ويجعل له عدوا شياطين الانس والجن ويهيىء له اسباب النصر ويكمل له الدِّين ويُتم النعمة ويخيّره بين جواره تعالى او المكوث في الأرض فيختار الرفيق الأعلى صلى الله عليه وآله وسلم .

ويذكر المسلم المؤمن أنّ الله تعالى عندما يضع الموازينَ القِسْطَ ليوم القيامة يكون أقربَ الاعمال والاحوال والاخلاق والاقوال الى الله تعالى اكثرُها شبهاً واتّباعاً لاعمال واحوال واخلاق واقوال الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم .

وأصدق اليقين هو يقينه صلى الله عليه وآله وسلم حيث لم يتزعزعْ مع شتّى الابتلاءات . وقد كان أشدَّ بلاءً . ومن حيث القصد ، فلم يُخَصِّصْ من عمره جزءً اسماه (طرفة عين) لغير الله تعالى قصداً وغايةً ونيّةً وعزيمة . ومن حيث الجهدُ فهو مع العمر في نفس الاتجاه ومع الاستطاعة بدون ان يدخر منها لغيره تعالى . لم يتغافل عن كل بادرة وخاطرة وفرصة إلاّ واهتبلها لربه الكريم .

---

(٥) الانفال / ١٧ .

ويذكر المؤمن المسلم أنّه باتباعه للرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم لا يطلب لنفسه منصباً إذ رجا قرباً ممن جعل ذاته الجليلة اقرب للانسان من حبل الوريد . ولا يطلب منزلة لها وهو في منزلة الشاكرين لأنعُمِ ربه الكريم اذ عرف قدره . ولا يملأ عينيه إلاّ بما ملأ قلبه من نور ربه وشعر به من رحمته « ورحمة ربك خير مما يجمعون[٦] » . فالقرب من الله تعالى ليس المقصود بل يمنحه تعالى لمن أعلى كلمته ونصره فالله تعالى هو المقصود .

ويعلم المؤمن ان سوى الله تعالى ما هو إلاّ حجابٌ عن ربه فإذا جعل قيمةً لذلك الحجاب ، كأن يلهيه عن ذكر الله ، تجسّد له حجابه يوم القيامة حجاباً مما يجعلهم في حال قال تعالى عنها « كلاّ إنّهم عن ربّهم يومئذٍ لمحجوبون[٧] » .

يكون المؤمن باتباعه للرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم حريصاً على هداية الضالين والكافرين حتى وإن قاتلهم في سبيل الله تعالى . كما يكون ذا قلب رحيم رؤوف بالمؤمنين إذا وَلِيَ من امورهم شيئاً . ومثل هذا الكتاب لا يكفي لدلالة المسلم المؤمن على الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بما كان من (تفصيل) في حياته عدلاً ورحمةً واحساناً وايثاراً وبلاغةً وفصاحة ووفاءً وصدقاً ومحبة ورأفة وإقالةً للعثرات وجبراً للكسور وستراً ونصحاً وكرماً وجوداً واصلاحاً وتعليماً وادخالاً للسرور على اهل بيته واصحابه وتبشيراً وانذاراً وتيسيراً وإعانة

---

(٦) الزخرف / ٣٢ .
(٧) سورة المطففين / ١٥ .

واقناعاً بالحسنى • ولكل حال من هذه الأحوال شـواهد جمة زخرت بها سيرته الشريفة • ويكفي نزاهته وصدقه ما جـاء في الباب السابق عن كسف الشمس يوم وفاة ابنه ابراهيم • ويكفي في مجال رأفته وتعليمه للمؤمنين أن نذكر قصة شاب مسلم جاءه في مجلسه صلى الله عليه وآله وسلم وبعد أن سلّم وتقدم منـه قال له : يا رسـول الله ائْذَنْ لي بالزنى ! لقـد كانت مفاجـأة لجلسائه جعلت منهم من ينهر الشاب بقَولِه : اتقول ذلك لرسول الله ؟ فاذا بالمصطفى صلى الله عليه وآلـه وسلم يطلب منهـم ان يَدَعُوهُ والتفت اليه بهدوءٍ ورقةٍ بعثا الطمأنينـة في نفسـه واللهفةَ في تلقّي الجـواب الحكيم منه • فبادره الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وسأله : « اترضاهُ لأُمّكَ ؟ » فقال الشاب « كلاّ » • وكرر عليه السـؤال « اترضاه لاختك » ــ كلا • وهكـذا لقريباته من العمة والخالة فيقول « كلا » • وهنا ألقى صلى الله عليه وآله وسلّم الحكمة من هذا التساؤل بالنتيجة التي فرضت نفسها على الشاب المسلم بأن اللواتي يريد الزنى بهن ما هن إلاّ امهات او اخوات او عمات او خالات اخوانه من الناس فقال صلى الله عليه وآله وسلم « فكذلك الناس » • وترك للشاب فكرة جديدة تعمل في ذهنه عمل الحكمة والرشاد ودعا له صلى الله عليه وآله وسلم من ربه أن يُبَغِّضَ اليه الزنى فاسـتأذنه وانصرف في حال قال عنه فيما بعد : والله لقـد خرجت من عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وليس شيىء" ابغضَ عندي من الزنى ! فماذا كان سيحصل لو أن رسول الله صلى الله عليـه

وآله وسلم نَهرَ ذلك الشاب وأمر بتعزيره ؟ لعل شيطان العناد كان بانتظار ذلك ليبادر للشاب الحانق فينفخ الاصرار على المعصية فيه فيخرج اكثر جهلاً مما كان عليه اذ دخل • وهكـذا فوّتت حكمته صلى الله عليه وآله وسلم مسلكاً من مسالك الضلال واخزت شياطين الزيغ وثبت الله تعالى بها قلوب المؤمنين • ولكم في رسول الله اسوة حسنة • ويذكر هنا كيف انه صلى الله عليه وآله وسلم في محنة الهجرة لم يملكه الغضب والانتقام إذ لحقه من كان على الشرك آنذاك ــ سراقة ــ ليقتله في طريق الهجرة فيفوز بجائزة جعلها كفار قريش لمن يلحق بالمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فيقتلـه • وهـا هو سـراقة يـرى من الآيـات في سـقوطه عن فرسه مرتين وفي ذهاب يَدَيْ فرسه في الأرض قبل وصوله موقع المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وصاحبه الصديق عليه السلام فيوقن انه ممنوع عنه وان امره سيظهر فيكشف غايته من الطلب ويطلب كتاباً بالأمان ويأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم له بذلك ويردفه ببشارة لهذا الاعرابي (سراقة بن مالك من بني مدْلج) بقوله : كيف بك اذا لبست سوارَيْ كسـرى ؟ واذا بتاج كسرى ومنطقته وسواراه يؤتى بها في خلافة عمر عليه السلام ويدعو سراقة فيلبسه السوارين ويقول له : ارفع يدك وقل : الله اكبر ، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة بن مالك أعرابياً من بني مدلج • ثم قسم ذلك بين المسلمين[٨] •

(٨) سيرة ابن هشام .

ومثل هذا الكتاب لا يكفي للتعرّف على السيرة التي ملأت الكتب سرداً وشرحاً وتفسيراً واسوةً حسنة • ولا يكفي لوصف احواله صلى الله عليه وآله وسلم : في حُلْمِهِ عندما لا يملكه غيرُه اذا وجب الغضب ؛ وفي رفقه عندما تحضر دواعي الشدّة ؛ وفي شجاعته عندما تتوسط الخيل جَمْعَ الكُفْر ؛ وفي كرمه إذا أُحضِرت الأنْفُسُ الشُّحَّ ؛ وفي صبره في البلاء ، وتسليمه في في القضاء ، وشكره في كل مقام ، وفي الحكمة عندما تُثار نوازع الفضول •

ومثل هذا الكتاب لا يكفي لوصف خُلُقٍ عظَّمهُ الله تعالى ، وثقةٍ زكّاها تعالى ، وتواضع لمن يذكر عن نفسه انه ابن امةٍ كانت تأكل القديد أو انه عبدٌ يأكل كما تأكل العبيد • ولا يكفي لوصف ساعة يختار فيها الرفيق الاعلى يختار ربّاً عَبَدَهُ وحبيبا سُعِدَ بحبه وأنِسَ به في وحشته ومحنته ايام قاطعه قومه فلم يفارق ربّه في محنةٍ أو رخاء طرفة عين • فهي اذن ساعة اللقاء المنتظَر بالانتقال الى حياته الصحيحة من غير أن يسبقه فراق بل اضحى وقد أطفأ له تعالى شوقه ومتّعه بخلود سعادته وسعادة خلوده •

ادّى الامانة ونصح الامة وصبر شاكراً وشكر صابراً • فلا حجّةَ بعد هذا لمن آمن ورأى الاسلامَ في محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ورأى محمداً في الاسلام ، أن يجهل موقعه (موقع المؤمن) من الله تعالى ، قُرباً اَو بُعداً ، وامامه اسوةٌ حسنةٌ لا يجوز أن يرى غيرها إلاّ على نورها موزوناً بمعاييرها وقد اوصلته

الى اكتشاف سرّ وجوده : ألا وهو العبادة الصحيحة لله تعالى ، إخلاصاً له الدين ، واسلاماً بلا تردد ، وخوفاً من عذاب يوم عظيم لمن عصاه وأصرّ على المعصية ، مع خسارة نفسه واهله في ظُلَلٍ من النار من فوقٍ ومن تحت لا يمكن اتقاؤها إلا بالتقوى وباجتناب الطاغوت فيُنيبُ الى الله تعالى فله البشرى إذ استمع القول فاتّبع أحسنه وكان من اولي الألباب : « لهم غرف من فوقها غرَفٌ مبْنيّةٌ تجْري من تحْتها الانهار وعْدَ اللهُ ، لا يُخْلِف اللهُ الميعادَ »(٩) .

عودةً الى فضل الله تعالى على الرسول وامته فهو رحمة للعالمين صلّى الله عليه وآله وسلم . ويذكر الفضلُ هنا ليبقى المتفضّلُ جل وعلا هو المذكور والمقصود بالذكر والتوحيد فهو المُوَحَّدُ باتباع رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم . فان الرحمةَ تشير الى الرحمن والنعمة تدل على المنعم فلا يشغل الموحّد بالنعمة عن المنعم بل يجعل النعمة سبباً لذكره وشكره وحُسن عبادته والدوام على ذلك حتى لقائه تعالى شأنُهُ .

ويتفاضل المؤمنون في سياق اتباعهم . واول ما يُذْكر بعدَه من قال صلى الله عليه وآله وسلم أنها بَضْعَةٌ منه . والبَضْعَةُ تحمل من الأصل ما يزكّيها على غيرها إلا الاصل المزكّى وان لم تبلغ كمال الأصل . فالزهراء ، فاطمة عليها السلام وبفضل ربها الكريم هي التي قالت في ما يُنصَحُ للمرأة : « أنْ لا تَرى ولا تُرى » . (بفتح التاء اولاً وضمها ثانياً) . يمرّ عليها وعلى اهل

(٩) الزمر / ٢٠ .

بيتها الكـــرام سلام الله عليهـــم يوم واكثر لا يجدون ما يأكلون فيبشرها أبوها اذ مرضت وليس عندها ما تأكل : « الا ترضـــين أنكِ سيدةُ نساءِ العالمين » • لقد كان يحضرهم الطعام ويجدونه ولكنهم ، في مرةٍ ، طَلَبَهُ مسكينٌ سبقهم بالجوع بيوم قبلهم فاطعموه الطعام ، وجاءهم في اليوم التالي يتيم سبقهـــم بالجوع بيومين قبلهم فاطعموه الطعام الذي حضرهم ذلك اليوم • وجاءهم في الثالث أسيرٌ سبقهم بثلاثة ايام قبلهم فاطعموه الطعـــام الذي حضرهم ذلك اليوم ! كيف لا وهم يذكرون خوفهم من ربهم يوماً عبوساً قمطريرا « فوقاهم الله شرَّ ذلك اليوم ولقّاهم نضـــرةً وسرورا • وجزاهم بما صبروا جنةً وحريرا[١٠] » • جَعَلَتْ سلام الله عليها ، واهلُ بيتها من فعالهم واخلاقهم اَسباباً لرضوان الله والسرور بنظرته يوم يلقونه • وغادرت الحياة عاليةً بتولاً قد اغتسلت وتوضأت للدخول على سيدها الخالق العظيم لتلحق عنده بأبٍ رحيم فتُحشر معه على ناقة من نور في مقدمة ركب المؤمنات الصالحات الكاملات • انها بَضْعَةُ المصطفى ، وكفى •

ويأتي التفاضل في اولئك المؤمنين الاولين الذي بايعوا الله عندما بايعوا رسوله تحت الشجرة فجَعل يده فوق ايديهم تأييداً لنصرهم « ••• أشِدّاءُ على الكُفّارِ رحماءُ بينَهم تراهـــم رُكّعاً سُجّداً يبتغونَ فضلاً من اللهِ ورِضْواناً ، سيماهُم في وجوههم من اَثرِ السجود[١١] » هم الزرع الذي زرعه معلمهم

(١٠) الانسان / ١١ و ١٢ .
(١١) آخر سورة الفتح .

ومربيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كزرعٍ أخرجَ شَطْأَهُ فآزَرَهُ فاستَغْلَظَ فاستوى على سُوقِهِ يُعجِبُ الزُّرّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفّارَ وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا وعمِلُوا الصالحاتِ منهم مغفرةً وأجراً عظيما »(١٢) • فيهم المهاجرون الفقراء الذين أُخْرِجُوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا ؛ ومنهم الانصار الذين تبوّأوا الدار والايمان من قبلهم يُحِبُّون مَنْ هاجَرَ اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجةً مما أوتوا ويؤثِرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة • ومنهم الذين جاؤا من بعدهم ــ وهم اهل الايمان حقاً والاسلام صِدقاً الى يوم الدين ــ يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تَجْعَلْ في قلوبِنا غِلاً للذينَ آمنوا ربنا إنك رؤُفٌ رحيم •

ويتوالى المدحُ الربانيّ والنبويّ لهم (للمهاجرين والانصار ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين) إذْ يقدمون اموالهم يوم كان الاسلام يحتاجها لاعلاء كلمة الله تعالى في أرضه واذ يرخصون أنفسهم لدرء خطر الكفر عنه ويواصلون حمل رايته باقتحام النار والانهار والبحار حتى خفقت (لا اله إلاّ الله • محمد رسول الله) على رُبَى الصين والاندلس وجنوب الصحراء الكبرى وعلى جبال وسهول آسيا واوربا وتخوم المحيط المنجمد الشمالي وسواحل الهادي والاطلسي •

---

(١٢) آخر سورة الفتح .

لم تكن تضحيتهم بالغالي إلاّ من أجْلِ ما هو أغلى منه • ولم يتحقق ما هو اغلى من النفس والمال إلا بالايمان الصحيح • وهكذا الايمان اذا خالطت بشاشتُه قلوبَ المؤمنين فيرخص من اجله فيها غيره من الدنيا وزخرفها •

والمدح الرباني والنبوي هو مدح المربّي الذي يجعل من مدحه تنميةً تربوية للممدوح ، لاسيما وان الممدوح يعلم أنّما صدر المدح من ربٍّ عليم لا أحَدَ أصدقُ منه • فالمدح هنا بِشارةٌ للممدوح لايريد هذا أن يخسرها بما يبطل العمل من اذىً ورياء •

ويأتي مدح الله تعالى للمؤمنين بشكل عام يشمل المواصفات التي تؤهلهم لجعل القرآن هدى لهم • فاذا اهتدوا ازدادوا واستمروا على ذلك الى ما شاء الله تعالى • فالقرآن الكريم هدىً لمن يؤمن بالغيب ويقيم الصلاة ويُنفِق مما رزقه الله تعالى مع ايمان بما أُنْزِل على النبي الكريم صلّى الله عليه وآله وسلم وبما أُنْزِلَ من قبله ويؤمن بالآخرة « اولئك على هدىً من ربّهم واولئك هم المفلحون[١٣] » •

اولئك هم المفلحون ، جعلهم تعالى امةً وسطا ليكونوا شهداء على الناس • لا يعبدون من دونه تعالى مالا يضرّهم ولا ينفعهم بل هم أشدّ حبا لله مما سواه •

---

(١٣) البقرة / ٥ •

اهتدوا لِمَا اختلفوا فيه من الحق فقد صفت معرفَتُهم بالله تعالى ويخافون من زيغ قلوبهم ومن ورائهم يوم الجمع لا ريب فيه شاهدين بوحدانية من لا اله الاّ هو قائماً بالقسط عزيزاً حكيماً • لا يرضون ديناً غير أن يُسلِموا لله تعالى ذاكرين الله تعالى الذي يعلم ما في صدورهم وهو على كل شيىء قدير • يتَبِعّون الرسول الكريم صلّى الله عليه وآله وسلم ابتغاء محبة الله تعالى لهم وعالمين أن الهدى هدى الله والفضلَ بيده ويختص برحمته من يشاء • فهم في سعي دؤوب اليه بالوفاء بالعهد إذ تابوا وقالوا سمعنا واطعنا وهذا من معاني التقوى والله يحب المتقين •

يعلمون ان اعتصامهم بالله تعالى هو من موجبات هداه الى صراط مستقيم فلا يتفرقون بغياً بينهم بعد ان تمسكوا معتصمين بحبله (القرآن) ذاكرين نعمته تعالى أن ألّف بين قلوبهم وانقذهم من عذاب اليم ، من عذاب الجحيم •

لا يفرقون بين الله تعالى ورسله ولا يفرقون بين أحدٍ من رسله ولا يستنكفون ان يكونوا عباداً لله أحراراً عن عبادة غيره فبذلك يُغنيهم ويزيدهم من فضله •

لا يحزنهم الذين يُسارِعون في الكفر ويعلمون أن من يُرِدِ الله فِتْنَتَهُ فلا يملكون لهم شيئاً • وأن العِزّةَ لله السميع العليم •

لا يتّخذون من استحب العمى على الهدى ، ومن اتخذ الدين لهواً ولعباً ، والكفار ، اولياءَ من دون المؤمنين وان كانوا

اقرب الناس اليهم • ويتولّون الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون •

يُصَدِّقون بالحق وبِهِ يهدون ويصدِقون • ويعدِلون بالقول ويعرضون عن اللغو مخافة أن يُحشَروا الى ربهم مُثْقَلين باوزارهم ليس لهم من دونه وليٌّ ولا شفيع • يدعونه بالغداة والعشي يريدون وجهه ويقتدون بالمهتدين فَيَقْدِرونَ الله حقّ قَدْرِهِ وصدورهم منشرحة للاسلام ثابتين على صراط مستقيم كلما مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مُبصِرون •

جعلوا دينهم خالِصاً لله تعالى على صراط مستقيم لا شرك فيه بل مِلّة ابراهيم حنيفاً حامدين الله على ما هداهم ولا يجدون في صدورهم غِلاً للذين سبقوهم بالايمان ووجدوا الصبر سبيلاً لنصرة الله تعالى والعاقبة للمتقين الذين يُمَسِّكون بالكتاب تلاوةً وانصاتاً رجاء رحمة ربهم •

ذكرُهُم في تضرع وخيفة بالغدوّ والآصال ويحذرون الغفلة وقلوبهم وَجِلة لذكر الله تعالى وتستجيب جوارحهم لامره ما استطاعوا وتزيدهم آياته إيماناً وعليه يتوكلون •

يعمرون مساجِدَ اللهِ ايمانا بالله واليوم الآخر • لا يقعدون عن طلب رضوانه واعلاء كلمته • تائبين عابدين حامدين سائحين حافظين لحدود الله •

لاتجد فيهم غِلظة إلا على اعداء الله من الكفار والمنافقين • هَداهم ربُّهم بايمانهم يستبقون الخير في ما انزل اليهم من ربهم يخافون ان عصوه عذاب يوم عظيم •

لا يُرهِقُ وجوهَهُمْ قَتَرٌ ولا ذِلّةٌ • فرحين بفضلِ الله ورحمته تعالى • أقاموا وجوهَهُم لله حنفاءَ لا شريك له • ولا يستبدلون جِوارَه بزينةِ الدنيا فهم على بيِّنة من حظهم في حياتهم الحقة فكسبوا بيِّناتِ امرِهم في دينهم ودُنياهم وآخرتهم وأخبتوا للهِ بالايمان والعمل الصالح فزادهم من فضلِهِ •

لا يسألون ماليس لهم به علم وهم يعلمون ان العليم اللطيف الخبير رؤوف رحيم بهم وجعل العاقبة للمتقين فلا يتطرق إليهم يأس ولا يعجبون من امره ان اراد بهم خيراً من حيث لم يحتسبوا• فتطمئن قلوبُهم بذكره راضين عنه لا يسأمون من عبادته بل يشكرون نعمته ولا يجحدون فضله •

يجتنبون قولَ الزورِ ويُعظِّمون حُرُماتِ اللهِ تعالى وشعائرَهُ فلا انحراف يطرقهم ولا إعراض يُضِلُّهم ولا يبْدُرُ مِنهم الا الطاعةُ • أقاموا وجوههم حُنَفَاءَ لله تعالى مستمسكين بالعروة الوثقى منيبين اليه وحده فلا يفرّقون دينهم شيعاً واحزاباً ولا يستخِفُّهُم الذين لا يوقنون •

صدقوا ما عاهدوا الله عليه وما بدّلوا العهد فما قضى اللهُ تعالى فيهم أمراً فلا يختارون غيره ولا يجدون في انفسهم حرجاً منه ويزكون انفسهم بالتسليم له رجاءَ تجارةٍ لن تبور •

يخشون الرحمن بالغيب ويتدبّرون آياته فلا غفلةَ تأخذهم ولا خيرَ يُشغِلُهم • وان اتتهم نعمةٌ وفّوا حقّها وهم قانتون (طائعون) ، وصدورهم منشرحة بالاسلام ؛ بما احبوا من الحقّ ، وكانوا على نور من ربهم • ويتقون بوجوههم العذابَ متتبعين أحسن ما أُنزِل اليهم ولو كره الكافرون •

يستبشرون ببيعهم الذي بايعوا الله به فلا زيغ ولا حزن بل فوزٌ ونصرٌ مبين مستمسكين بالحق فلا تأخذهم خشيةُ غير الله فيه ولا لومةُ لائم • فلا سبيل لشيطانٍ عليهم ولا لكافرٍ في تفرقتهم ، بل اجتمعوا على الهدى ودين الحق وصراط مستقيم •

لهم في النهار سَبْحٌ طويل ويُسبِّحونَهُ ليلاً طويلاً • لا يُحبون العاجلة ولا يذرون الآخرة • يرجون حسابَ الله بالظن الحسَن ويتزكّون بالقسط والجود والسماحة فيُقَدِّمون لانفسهم في حياتهم الخالدة على هدىً واخلاص ورضىً عمن يبتغون رضاه • فموازينهم ثقيلة بهناءة عيشةٍ راضية وقد سبقت لهم منه تعالى الحُسنى فهم عن جهنم مُبعَدون لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهتْ انفُسُهم خالدونَ لا يَحْزُنُهُمُ الفزعُ الاكبر وتتلقّاهم الملائكة : هذا يومكم الذي كُنتم توعدون •

فمن كان هذا هُداه ، فالحريُّ بعبادته لله تعالى أن تكون كما مدحها العظيمُ في عِبادِهِ المحسنين : يؤمنون بالقرآن الكريم، مُحْكَمِهِ ومُتَشابهِهِ ؛ يقولون كلٌّ من عند الله ؛ ولا

يتّبِعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنةِ ويقولون ربّنا آمنا فاغْفِرْ لنا ذنوبنا وقِنا عذاب النار •

قانتون • يستغفرون بالاسحار • يُقيمون الصلاة على طُهْرٍ وصحة وضوء ، بتمام أركانها وسُنَنِها • ويصومون رمضان ويتطوعون لغيره ويؤتون حق الله تعالى ويزيدهم بتصدقهم • ويحجّون بيته ويَعْمُرونه •

لا يحرّمون حلالاً ولا يُحِلّون حراماً ويُسارعون لتكفير سيئآتهم والندم عليها ويُتْبِعونها بالحسنات ولا يقربون الفواحِش ما ظهر منها وما بطن ويأخذون زينتهم عند كل مسجد مع زينة قلوبهم بالخشوع وابقائها في سجود دائم حتى يلقوا من سجدوا له • ويدعونه خوفاً وطمعا فرحمته قريبٌ من المحسنين •

يشعرون بفضل الله تعالى فيشكرون بلا شريك فهو وليّهم وهو يتولّى الصالحين • مستبشرين أنّ لهم قَدَمَ صدقٍ عند ربهم وعد الله حقاً ويخشون زلّةَ القَدَم فيحذرون ويستقيمون • وهكذا لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون •

أخبتوا لِلّه بالعمل الصالح وتبرّأوا من شرك غيْرِهمْ • ويوفُون بالعهد على السمع والطاعة الخالصة لوجه الله تعالى ، لا لمنصبٍ أو جاهٍ او مكسب ، فلا يحدوهم غير رضاه تعالى في الدار الآخرة عنده أعدّها للمتقين •

لا يستخفّهم مرحٌ ولا يُعيقهم حَزَنٌ ولا يهزهم مديح ولا يؤذيهم ذمٌّ • ومِمّا عَرَفوا من الحق والصدق فهم لايقولون

إلا التي هـي احسن • ولا يركنون لزخـرف القول إذْ كانت معرفتُهم وكان صدقهم خيرَ نبراس لتمييز الحَسَن من الباطلِ الذي توحيه الشياطين •

من ليلهم شطرٌ للتسبيح وإقام الصـلاة ، يبيتون لربهـم سُجّداً وقياماً • ويتلون كتابَ الله تعالى فـ « إن قرآن الفجر كان مشهوداً » • يدعون ربهم بالغَدَاةِ والعَشِيّ يريدون وجهه ويرجون لقاءَه فهم يُناجُونه وينادونه خفيـة ويثنون عليـه ويُصلّون على رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم • واليه يضرعون •

شُكْرُهُمْ في سَمْعِهم بالإعراضِ عمّا لا يُرضي ربّهم ؛ وفي بصرهم في غَضِّ البصر عن المحرمات ؛ وفي افئدتِهم باتجاهها اليه تعالى ، مستعيذين به تعالى من همزات الشياطين • لا إفْكَ في قولِهم ولا فحشاءَ في فِعلِهم ولا زَيغَ في قلوبهم ولا اتباعَ لهم لخطوات الشيطان •

لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيـع عن ذِكْرِ الله ويسألونه تعالى منزلاً مباركاً وهو خير المنزِلين • واذا ذُكّروا بآيات ربّهم لم يخِرّوا عليها صُماً وعمياناً وهو الـذي يرى تَقَلّبَهـم في الساجدين • تتجافى جنوبهم عن المضاجع قانتين بالإحسـان ، صادقين بالخشوع ، مُنيبين الى ربهم وكافرين بالطـاغوت من دونه •

الإحسان غايتهم ، وبالاصلاح استجابتهم ، وبالعدل نهجهم وبالطاعة سلوكهم ؛ والشكر شعارهم ، والتقوى دِثارهم ، والصبرُ سلاحُهم ، والجهادُ سبيلُهم • وبالذكر والتوبة ثباتُهم •

يجتنِبون كبائرَ الأثمِ والفواحِشَ ولا يصرون على اللَّمَم فالمعصيةُ عندهم مكشوفة لمن لا تخفى عليه منهم خافية فهم ينظرون الى من يعصون ولا ينظرون الى صِغَر معصيتهم فهكذا قدرُ الله عندهم بالطاعة للثبات في ولايته وبها ينعمون •

لا يخوضون لعبا في دينهم ولا يشترون لَهْوَ الحديث لِيُضلُّوا عن سبيل الله بل يعظّمون شعائره من تقوى القلوب •

فمن كانت عبادته على هذا النهج الذي امتدحه الخالق العظيم فماذا يكون خُلُقُه ليبقى في نطاق هذا النهج الكريم ؟ حِلْيَتهم الصدقُ والصبرُ ، يدعون للخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر • يتّقون النار بالمسارعة الى الجنة والى مغفرة من الله ورضوان •

يكظمون الغيظَ ، ويعفون عن الناس ، ويتقون الارحام ، ويسددون القول ويعاشرون بالمعروف ، ويجتنبون البغي ، ولا يتمنّون ما فضّل الله به بعضهم على بعض • فلا حَسَدَ ولا جَشَعَ بل صبر" وشكر وثبات" على الرضى • يؤدّون الامانة ويحكمون بالعدل ويردّون نزاعَهم الى الله وحُكْمِهِ فيه • ولا يُبيّتون مالا يرضى من القول ، ولا يرمون غيرهم بإثمهم ، ولا يتناجون بالاثم والعدوان ومعصية الرسول ، بل بالبر والتقوى •

يُصلِحون ذات البين ، قوّامين لله شهداءَ بالقسط ولو على أنفسهم أو الوالدين والاقربين من غير ان يتّبِعوا في ذلك هوىً أو يَغْلِبهُم شحٌّ أو إعجاب بالنفوس .

لا يجهرون بالسوءِ من القول ، إلاّ من ظُلِم ؛ ولا يُبدون أو يخفون إلاّ خيراً ؛ ويوفون بالعقود ؛ ويتصدّقون بالعفو عند المقدرة ؛ ويُيَسِّرون ولا يُعَسِّرون أو ينفِّرُون .

يستطيبون الطّيبات ويتقون فيها بالعمل الصالح ويجتنبون الخبائث وقد حرّمت عليهم ولا يُسرفون ولا يبذّرون .

يرحم كبيرُهم صغيرَهم ويَبرّ صغيرُهم كبيرَهم وقاراً وعوناً . ويأخذون بالعفو . ويأمرون بالعرف ويُعرِضون عن الجاهلين . يأمرون بالعدل والاحسانِ وايتاء ذي القُربى ، وينتهون عن الفحشاء والمنكر والبغي وينهون عن ذلك ؛ ويفعلون الخير ويحبون المساكين ؛ ويُحبون في الله ؛ ويَستَعْفِفون عن محارمه تعالى ؛ ولا يُصعِّرون خداً ، ولا يمشون في الارض مرحاً ، ولا يختالون ، ولا يفخرون .

لقاؤهم لبعضهم بالتحية الطيّبة من عند الله مباركة . ولا يتخذون وِدّاً من حادّ الله ورسوله وضلّوا عن سواء السبيل ؛ ويَدَعُون أذاهم ؛ ولا يجادلون الاّ بالتي هي أحسن ؛ ولا يبغون في الأرض علوّاً أو فسادا .

يمشون على الارض هَوْناً واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . ولا يشهدون الزور واذا مرّوا باللغو مرّوا كِراما .

لا يُضارّون ولا يُضيّقون ، وليس لهم خائنة أعين • ولا يَسْعَون في نميمة أو حقد • وان جاءهم فاسق بنباءٍ يتبيّنون • لا يسخرون ولا يغتابون ولا يلمزون انفسهم ولا يتنابزون بالالقاب ولا يتجسّسون ولا يتحسسون ولا يتباغضون ولا يتباعدون ولا يزكّون انفسهم بل يزكيهم اللهُ واليه يُرجعون •

لا يُداهِنون ولا يُطيعون المكذّبين ولا كلَّ حلاّفٍ مهين مَنّاعٍ للخير معتدٍ اثيم •

لا يجزعون في ضرٍّ أو شرٍّ ولا يمنعون ان نالهم خير • ويقتحمون الى الله العقبات بترك الشهوات وبالتواصي بالصبر والتراحم •

فمن كان هذا اهتداؤُهُ وهذه عبادتُه وهذا خُلُقُه ، فكيف تكون معاملته في ما جعله الله مستخلفاً فيه ليبقى في نطاق هذا المدح الكريم ؟

يُنفقون مما رزقهم الله تعالى ويعلمون ان المال فتنة" وابتلاء" وان الله عنده أجر" عظيم • يؤتون كل ذي حقٍ حقّه ، ولا يتبدلون الخبيث بالطيب ، ويؤدون الامانة في عِفّةٍ الى اهلها ، ويُقرضون الله تعالى قرضاً حسناً ، ولا يأكلون اموالهم بينهم بالباطل • ويجتنبون الرياء في النفقة فيجعلونها لرضى ربهم الكريم • وفي اموالهم حق للسائل والمحروم •

يريدون وجه الله بنعمته • يوفون الكيل والميزان بالقسط • ولا يُفرّقون بين قريب وبعيد فالنعمة امانة يسألون عنها يوم لا ينفع مال" ولا بنون الاّ من اتى الله بقلب سليم •

أدّبهم فعل الجاهل الذي يأكل ويتمتع كما تأكل الانعام ويلهيه الأمل عن التوبة فلم يركنوا لخداعٍ بل تبلّغوا بالقليل ليملأوا القلب بالكثير والذكر والرجاء • فإن أُعطوا شكروا بالتعبّد والورع ، وان مُنِعوا أحسنوا الظن بالكريم القدير • ولا يهمهم ما مُتّع به غيرهم فلعله فتنة" ومتاع" الى حين • النعمة ذكّرتهم بالمنعم • وما آتاهم إلا عن تقدير حكيم •

تركوا اهواءَ قومٍ ضَلّوا وأضّلوا • وطلبوا الرحمة الربانية بالصالحات والكرم • فلا يجدون في صدورهم حاجة مما أُوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فلا يؤثّر فيهم وعيدُ الشيطانِ بالفَقْرِ ولا أمْرُهُ بالفحشاء •

يُمهِلُون المُعْسِر • ولا يسألون الناس إلحافاً • ويوفون بالنذر ويطعمون الطعام على حبّه لوجه ربهم لا يرجون من سواه جزاءً ولا شكورا ، بل يتقون يوماً عبوساً قمطريرا ، ويرجون منه تعالى نضرةً وسرورا •

اذا دعاهم داعي نصرةِ الدين بالمال قدّموه ابتغاءَ وجه ربهم الاعلى وما عندهم لأحدٍ من نعمةٍ تُجزى •

فمن كان هذا شأنه في رضى الله تعالى ثم دعاهم داعي الجهاد إذْ طرق الخطرُ أمّةَ الاسلام ، فما هو جهادهم لدرئه وقهر أعداء الله ؟

هجرتُهم وجهادُهم يكونان قصراً على سبيل الله تعالى ، لتكون كلمته هي العليا ، فلا يهمّهم ما يصيبهم بل يعلمون ان

النصر بيد الله ، وانه وعدٌ عليه حقٌ نصرُ المؤمنين • فان ادركتهم حُسنى الشهادة فروح وريحان وجنة عرضها السماوات والارض، وان أدركوا حُسنى النصر فقد قرّت اعينُهم بالثبات والصدق وذكر الله كثيراً •

يعلمون أن المؤمنين عند الله هم الأعلَوْن فلا يصيبهم وَهَنٌ ولا استكانة بل يصبرون على الحق فيثبّت الله تعالى اقدامهم •

لا يتّخِذون بِطانةً من دونهم ، ولا يطيعون كافراً ولا يستعينون بمنافق ، وامرهم شورى بينهم ، ويتّبعون رضوان الله تعالى باتّباع منهجه الشريف ، ويتأسّون بالسُنّة المباركة التي عقد الله تعالى لها راية النصر الى يوم القيامة •

يعلمون أن ما أصابهم ويصيبهم فبإذن الله تعالى : فأن قُتِلوا في سبيله فهم احياءٌ عنده يُرزقون ؛ وان بَقَوْا فلا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون ، وذلك فضل الله تعالى ونعمته ، ولا يضيع اجر المؤمنين الذين من بعدما اصابهم القرح قد استجابوا للهِ والرسول بالصدق والوفاء •

اذا قال لهم الناسُ إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخْشَوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبُنا اللهَ ونِعمَ الوكيلِ • فانقلبوا بنعمةٍ من اللهِ وفضل لم يَمْسَسْهُمْ سوءٌ واتّبعوا رضوان الله • فلم يكن الذي اراد تخويفهم سوى الشيطان يُخوّفُ اولياءه ، واللهُ ولي المتقين يميزّهم ويكرمهم إذ ابتلاهم في عزم الامور •

يَصْبِرون ويُصابِرون ويرابِطون ويتّقون ولا يترددون في نصرة الله تعالى بحماية دينه واعلاء كلمته ، وبذلك يحمون حياتهم في كَنَف الله تعالى رب العرش الكريم •

يَحْذَرون العدوّ • واذا سمعوا إشاعة عرضوها على أولي الأمر منهم • يوفون عهودهم لأهل الكفر • ويرحمون الضعيف ، ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق مع البيّنة الصحيحة •

لا يهِنُون في ابتغاءِ الكافِرين ولا يكونون للخائنين خصماءَ في الدفاع عنهم أو تبرير خيانتهم • ولا يُبَيِّتون مالا يُرضي الله تعالى من القول • ويُصلِحون في الأرض ولا يُفسِدون •

لا يولون الأدبار في الزحف إلاّ لعذر يقبله الشرع • ويستفتِحونَ بالنصر وهم يضربون الرقاب من أجله • والله تعالى يُؤَيِّدُهُم بنصره • فلا خيانة ولا نكث بل استبشار وصدق •

اذا خافوا خيانةً من غيرهم فَاتَحوهم لِيَتَبَيَّنُوا مواقعهم من موقفهم ، ويُعِدّون ما استطاعوا ليُرْهِبُوا بِهِ عدوَّ الله وعدوَّهم •

يقبلون الجنوح للسلم وفق الشريعة إن تحقّق النصر بالسلم • وينصرون من يستنصرهم في الله • ولا يتثاقلون للجهاد بل ينفرون خِفَافاً وثقالاً بالنفس والمال • ولا يستأذنون وليهم من المؤمنين في التنصُّلِ من الجهاد بل يذكرون انه لن يُصيبَهم إلا ما كتب اللهُ لهم •

إن مكنهم الله تعالى في الأرض اقاموا الصلاةَ وآتَوُا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ووفّوا بالعهد . ولأجْرُ الآخرة عندهم اكبرُ من علُوّهم في الارض .

اشدّاءُ على الكفّار رحماء بينهم . لزِموا كلمةَ التقوى وكانوا احقّ بها وأهلَها امتطوا للوغى صُبحاً العاديات ضبحاً ، مورياتٍ قَدْحاً ، فأثرن به نقعاً ، فوَسَطْنَ به جمعاً ؛ فَضَرْبُ الرقابِ ، وشدّ الوَثاقِ ؛ فإمّا مناً بعد وإمافداءً حتى تضع الحربُ اوزارها نصراً من الله ، أو شهادةً في سبيله ، أو فتحاً مبينا . « وما عند الله خيرٌ للأبرار(١٤) » .

هذا الانموذج الاسلامي ليس فيه جدالٌ ولا خلاف ولا حيرة ولا اوهام باطلة ولا سفساف الامور . ولكن هل اذا اصبح كلّ المؤمنين على هذه الصفات وعلى قلب واحد ، هل يتركهم الله تعالى بلا فتن ؟ وهل يتركون بلا تمييز شديد وقد أخذ الله تعالى على نفسه أنّه لن يترك الناس أنْ يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون . قال تعالى « احَسِبَ الناسُ أنْ يُتْرَكُوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يُفْتَنُونَ * ولقد فَتَنّا الذين من قبلهم فَلَيَعلَمَنَّ اللهُ الذين صدقوا ولَيَعْلَمَنَّ الكاذِبِيْنَ(١٥) » .

الا يستوقفنا قولُه تعالى : « ولقد فتنّا الذين من قبلهم » ؟ نعم . وعلى ضوء قوله تعالى : « لقد كان في قَصَصِهم عبرةٌ لِأُولي الالباب . ما كان حديثاً يُفْترى ولكنْ تصديقَ الذي

(١٤) آل عمران / ١٩٨ .
(١٥) العنكبوت / ٢ و ٣ .

بين يديه وتفصيلَ كلِّ شيءٍ وهدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون[١٦] » . فالذين من قبلنا ، قال تعالى عنهم : « وما تفرّقَ الذين اوتوا الكتابَ إلاّ من بعدما جاءتْهم البيِّنةُ . وما أُمِروا إلاّ ليعبدوا اللهَ مُخلِصينَ له الدينَ حُنَفآءَ ويُقيموا الصلاةَ ويؤتوا الزكاةَ وذلكَ دينُ القيِّمة[١٧] » اي دين العبادة على قيمتها الصحيحة .

هكذا تفرّقوا بغياً بينهم وليس تسليماً للحق . فمنهم من آمن ومنهم من كفر وما كفروا إلا بعد أنْ اوضح الله تعالى لهم سبيل التقوى والرشاد . إذاً كانت هناك عوامل لثبات الثابتين وعوامل لزيغ الضالين . وهذا الموضوع وما يلحقه من عوامل الثبات على التوحيد وعوامل الزيغ والضلال هو ما سيبحثه الباب التالي بعونه تعالى وفضله .

---

(١٦) يوسف / ١١١ .
(١٧) البيّنة / ٤ و ٥ .

الباب الخامس

الثبات وعوامله ، والزيغ وأسبابه

يجدر في هذا الباب تلخيص ما يُستدلّ عليه في الآيات والاحاديث من الثبات والزيغ ، وما أكثرَ ما ورد عن ذلك لاهمية الموضوع القصوى • وقبل ذلك لابد من عرض الاصناف البشرية من حيث الهدى والزيغ ، حسبما عدّدها الخالق تعالى ، لكي يُميَّزَ الصنف المؤمن الذي يجدر بأن يهتدي للحق إذْ جاءه •

١ ــ الانسان المجرّدُ من الايمان يحمل في خِلْقَتِهِ (اي الفطرة التي فَطَرَهُ الله تعالى عليها) مقوّمات مُثْلَى تؤهّله لجوار الله تعالى : « لقد خَلَقْنا الأنسانَ في أحسنِ تقويمٍ[1] » ولكن هذا الانسان مالم يَتَوَجّه بهذه المقوّمات نحو الايمان والعمل الصالح في هذا الايمان فما أكْفَرَهُ ! « قُتِلَ الانسانُ ما أكْفَرَهُ[2] » • فهو هَلَوع في الشدة ، منوعٌ في الخير ،

(١) التين / ٤ •
(٢) عبس / ١٧ •

جزوع في الشر ، عجول في الرغبة والشهوة قبل أن يتبين شرعيتها ، طاغٍ اذا رأى نفسه استغنى ، يحب المال حباً جماً ويكذب باليقين ويوقن بالاكاذيب وزخرف القول الشيطانيّ غروراً ، ويبطش جباراً ويقطع ما امر الله به أن يوصل ويُفسد في الارض ويكره المساكين ويلزم المنكر ويترك المعروف . واخيراً يقول : أإذا ما متّ لسوفَ أُخْرَجُ حياً ؟ وهكذا الانسان مردود بهذه الصفات وغيرها ، مما يتصف به أهل الكفر الجبابرة والمنافقون ، إلى أسفل سافلين « ثم رَدَدْناهُ أسفلَ سافلينَ[٣] » ويبقى في هذا المردود حتى يهتدي إذْ جاءه الهدى فيؤمن ويعمل صالحاً ويترك المنكرات فيتصعّد عن المنزلة الدنيا الى استثناءٍ حميدٍ منها « إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجرٌ غير ممنون . فما يُكَذِّبُكَ بعدُ بالدِّينِ . أليسَ اللهُ بأحْكَمِ الحاكمين[٤] » .

٢ ــ الضّالّون من الانسان صنفان :

ــ صنف مختار مع فطرة سليمة يريد الهدى « وَوَجَدَكَ ضالاً فهدى[٥] » .

ــ صنف أضلّهُ اللهُ تعالى على علمٍ اذ قَسَتْ قلوبهم بعدما عرفوا الحقّ ولم يقبلوه « وما كان اللهُ لِيُضِلَّ قوماً بعد إذ هداهم حتّى يبيّن لهم ما يتّقُونَ إنّ الله

(٣) التين / ٥ .
(٤) آخر سورة التين .
(٥) الضحى / ٧ .

بكل شيءٍ عليم"[٦] » . فهم متفرقون في سُبُل متفرقة لأنهم خرجوا بالضلال عن طريق الحق ببغي منهم . وسيلي شرح عوامل هذا الزيغ لاحقاً بعونه تعالى .

٣ ــ المبلّغون بالرسالة : « يريدُ اللهُ لِيُبَيِّن لكم ويَهْدِيَكُم سُنَنَ الذين من قبلكم ويتوبَ عليكم واللهُ عليم حكيم[٧] » .

٤ ــ المُتّبِعون : « اَفَمن اتّبَع رضوانَ اللهِ كمن باء بِسَخَطٍ من الله ومأواه جهنم وبئس المصير . هم درجات" عند اللهِ واللهُ بصير" بما يعملون . لقد مَنَّ اللهُ على المؤمنينَ إذْ بَعَثَ فيهم رسولاً من أنْفُسِهِم يتلو عليهم آياتِهِ ويُزَكّيهم ويُعلّمهم الكتاب والحكمة وإنْ كانوا مِنْ قبلُ لفي ضلالٍ مبين[٨] » .

٥ ــ التائبون بعد الزّيغ ، وتكون توبتهُم سبباً لهدايتهم « كيف يهدي اللهُ قوماً كَفَروا بعد إيمانهم وشهدوا أنّ الرسولَ حق" وجاءهم البيّناتُ واللهُ لا يهدي القوم الظالمين . اولئك جزاؤهم أنّ عليهم لعنةَ اللهِ والملائكةِ والنّاسِ اجمعين . خالدينَ فيها لا يُخَفَّفُ عنهم العذابُ ولا هُمْ يُنْظَرُون . إلاّ الذينَ تابُوا من بعدِ ذلك وأصلحوا فإنّ اللهَ غفور" رحيم[٩] » .

---

(٦) التوبة / ١١٥ .
(٧) النساء / ٢٦ .
(٨) آل عمران / ١٦٢ ــ ١٦٤ .
(٩) آل عمران / ٨٦ ــ ٨٩ .

٦ ــ المنافقون ، ولهم صفات" واحوال" معروفة ، وأهمّها ما ورد عنهم في سور : (النساء والتوبة والمنافقون) • فهم يختانون أنفسَهم ولا يَسْتَخْفُوْنَ من الله ويتخذون الكافرين اولياءَ من دون المؤمنين ويشاقّون الله ورسوله ويريدون أنْ يُضِلّوا المؤمنين • ويتصف ظلمهم بالكذب وابتغاء الفتنة (أي يكمن ظلمُهم في القصد السيىء) ويتهربون في القتال بمعاذير تسقطهم في الفتنة • تسوءُهم الحسنة التي تصيب المؤمنين بينما يفرحون إن أصابَ المؤمنين ما يعتبرونه مصيبةً • ويأتون الصلاة كُسالى ويحلِفون انهم من المؤمنين بينما يشكّون في عدالة النبي الكريم صلّى الله عليه وآله وسلم ومن بعده بعدالة الائمة العادلين • يخلفون العهد اذا ما وعدوا ، خاصةً في النفقة والتصدّق ، ويسخرون من الفقراء لفقرهم ونفقاتهم الصغيرة ولتطوعهم بما يستطيعون • يرضون بالتخلّف عن الجهاد بلا عذر • وقد جاء هذا من ايمانهم ثم كفرهم فطُبِع على قلوبهم فهم لا يفقهون • يحسبون كل صيحة عليهم ولا يستجيبون إذا دُعوا ليستغفر لهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بل يستكبرون ويحاولون التخلص من ذلك اعتزازاً بما هم فيه من موقع بعيد عن الله تعالى ولا يعلمون أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين •

مع هذا ، في المنافقين ليس لنا من الأمر شيىء : أو يعذّبَهم اللهُ تعالى أو يَتُوبَ عليهم فقد استثنى الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله واخلصوا دينهم لله فاولئك مع المؤمنين (انظر الآية ــ ١٤٦ ــ من سورة النساء) • والله هو التواب الرحيم •

٧ ــ الكفّار والمشركون : من الآيات الواردة في سورتَي آل عمران والنساء (وعلى وجه التحديد ٩٠ و ٩١ من آل عمران ، و ١٦٧ ــ ١٦٩ من سورة النساء) فإن الكفار هم الذين ازدادوا كفراً بعد ايمان : « ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تُقْبَلَ توبتُهم واولئك هم الضالّون . ان الذين كفروا وماتوا وهم كُفّار فلن يُقبل من أحَدِهِم مِلْءُ الارضِ ذهباً ولو افتدى به اولئك لهم عذابٌ أليم وما لهم من ناصرين[١٠] » . وهذا يتفق مع الضلال الذي ورد في الفقرة الثانية آنفاً في الصنف الثاني من الضالين .

ومنهم من يصدّون عن سبيل الله ويظلمون في سياق كفرهم: « إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله قد ضلّوا ضلالاً بعيداً . ان الذين كفروا وظلموا لم يكن اللهُ ليغفر لهم ولا لِيهدِيَهم طريقاً . إلاّ طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً[١١] » .

وكفر من أهلِ الكتاب من آمن بموسى ولم يؤمن بعيسى (صلى اللهُ عليهما) مع ان الحق الذي معهما واحد . فكيف بمن لم يؤمن بمحمد (صلى اللهُ عليه وآله وسلم) مع أن تمام النعمة بكمال الدين تحقّق على يديه مصدقاً لما بينهما من الكتاب . قال تعالى فيهم « ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمنُ ببعضٍ ونكفرُ ببعضٍ ويُريدون

---

(١٠) آل عمران / ٩٠ و ٩١ .
(١١) النساء / ١٦٧ ــ ١٦٩ .

أنْ يتّخِذوا بين ذلك سبيلا • اولئك هم الكافرون حقاً • وأعْتَدنا للكافرين عذاباً مهيناً[١٢] » •

ويرد هذا المعنى ليكون عبرةً للمسلمين من بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الى يوم القيامة ليتخلّصوا من محنة التفرقة التي تحصل بين الذين يقبلون الدين من شخص ولا يقبلونه من غيره ! بينما الدين واحدٌ ليس له صورة اخرى غير ما ورد في التوحيد بعيداً عن ادخال البشر فيه إلاّ اتّباع الثابتين على طاعة الله تعالى مقتفين بذلك أثر رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم • قال الامام عليّ عليه السلام : « لا تَعْرِف الحقّ بالرجالِ ، بل اعْرِفِ الحقّ تعرف اهله[١٣] » •

أمّا المشركون ، فهم إجمالاً : يتخذون غير الله تعالى ربّاً متمثلاً بصنم او وَثَنٍ او زوجة او مال أو جاهٍ او دنيا بمختلف مظاهرها • ولا يُعتد بادعائهم بأنهم يعبدون الله مالم يتفق ظاهرهم وباطنهم فلا يُؤْبَهُ بالقول الذي لا يتجاوز حناجرهم في الايمان مالم يوحّدوا الطاعة للاوامر الربانيّة وبترك الإصرار على المعاصي (وإن بدرت) وبذلك تدوم الانابة الى الله وتحكيم ما جاء به الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) في ما شجر بينهم وقبول ذلك بلا حرج • فاذا حَكَمَهُمْ أمرٌ يتعارض مع أوامر الدين فاطاعوه نبذاً للدين ، وبلا اكراه وسهو ونسيان ،

---

(١٢) النساء / ١٥٠ و ١٥١ •

(١٣) اورده يوسف القرضاوي في ص ١٤ من كتابه الحلال والحرام / ط ١٤ / ١٩٨٥ •

فقد أشركوا بالله مالم يُنَزِّل به سلطاناً (اي عُذراً من اكراه أو فترة بلا رسالة أو سهو ونسيان) . واذا اشركوا فان الله تعالى أغنى الشركاء ولا يقبل شريكاً معه في عمل عبد فيتركه لما اتكل عليه مركوماً مع ما أغضب الله تعالى في جهنم مالم يعودوا لتعظيم حرمات الله وشعائر دينه الحنيف . قال صلى الله عليه وآله وسلم : « شرعوا لهم من الدين ما ليس فيه فاطاعوهم فتلك عبادتهم[١٤] » . كما صرح صلى الله عليه وآله وسلم عن عبادة غير الله بقوله « تعِس عبدُ الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة »[١٥] .

وبعد استعراض هذه الاصناف تجدر العودة الى الذين من قبلنا ــ نحن المسلمين ــ قال تعالى : « لقد كان في قَصَصِهِم عبرةٌ لأُولي الالباب . ما كان حديثاً يُفترى ولكنْ تصديقَ الذي بين يديه وتفصيل كلِّ شيءٍ وهدى ورحمةً لقوم يؤمنون[١٦] » . فماذا جرى لمن كان قبلنا ؟ يقول تعالى : « أحسب الناسُ أن يتركوا أنْ يقولوا آمنّا وهُم لا يُفْتنون . ولقد فَتَنّا الذين من قبلِهم فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين صدقوا ولَيَعْلَمَنَّ الكاذبين[١٧] » . فما هي عوامل الزيغ اذاً ؟

اما الخلاف بين الذين اختلفوا من قبلنا فقد كان بغياً بينهم . أي أن عامل النزاهة والعفة قد انحرف عن الحدّ المستقيم الذي اشترطه الله تعالى للمؤمنين . قال تعالى : « كان الناسُ أمّةً

---

(١٤) رواه مسلم عن عدي بن حاتم .
(١٥) رواه البخاري في الجهاد وابن ماجة في الزهد .
(١٦) يوسف / ١١١ .
(١٧) العنكبوت / ٢ و ٣ .

واحدةً ، فبعث اللهُ النبيينَ مُبَشِّرين ومُنْذِرِينَ ، وانزل معهم الكتابَ بالحقِّ ليحكُمَ بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلاّ الذينَ أُوتوهُ مِنْ بعدِ ما جاءتْهم البيّناتُ بغياً بينهم • فهدى اللهُ الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقِّ باذنه واللهُ يهدي من يشاء الى صراطٍ مستقيم[١٨] » فما هو البغي الذي حجب هدى الله تعالى مالم يتُب اهلُه وينيبوا الى الله عزّ وجلّ ؟

لقد ذكر الله تعالى لذلك أحوالاً ، ولكل حالٍ منها أوْجهاً مختلفة • وهذه الاحوال هي : الظلم ، بمختلف صوره ؛ او الفسوقُ ؛ او الكذب ؛ او الاسراف ؛ او مرض القلب ؛ و كيد الخيانة •

اما الظلم : فمنه تأليه البشر (البقرة / ٢٥٨) ؛ ومنه ترك الايمان من بعد الشهادة بحق الايمان وحق الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بالصدق (آل عمران / ٨٦) ؛ ومنه اتّخاذُ غير المؤمنين أولياء ، او الخشية منهم (المائدة / ٥١ والتوبة / ٢٣ والممتحنة / ٩) ؛ ومنه نبذُ كتابِ الله وتشريع غيره (المائدة / ٤٥) ؛ ومنه تعدّي حدود الله (البقرة / ٢٢٩) ؛ ومنه الكفر والنفاق (البقرة / ٢٥٤ وآل عمران / ١٢٨) ؛ ومنه افتراء الكذب على الله تعالى (آل عمران / ٩٤ والصف / ٧) ومنه إساءة الظن بالله تعالى وبرسوله (صلّى الله عليه وآله وسلم) (النور / ٥٠) ؛ ومنه المماطلة بالتوبة عن السخرية ولمز النفس والتنابز

---

(١٨) البقرة / ٢١٣ •

بالالقاب (الحجرات / ١١) ؛ ومنه الشرك والنفاق (التوبة / ١٩ ، ١٠٩) ؛ ومنه استحباب الحياة الدنيا على الآخرة (النحل / ١٠٧[١٩]) ؛ ومنه اتباع الهوى بغير هدىً من الله (القصص / ٥٠) ؛ ومنه الاستكبار على آيات الله عزّ وجلّ (الاحقاف / ١٠) ؛ ومنه التكذيب بآيات الله تعالى بعد مجيئها لمن يكذّبون بها (الجمعة / ٥).

يحجب الهدى عن اهل الكفر حسبما ورد في الآيات (البقرة / ٢٦٤) و (المائدة / ٦٧) في من يكفر بالله واليوم الآخر بلا توبة . و (التوبة / ٣٧) في من يُحِلّ ما حرّم اللهُ تعالى شأنه .

وورد عن حجْبِ الهدى عن أهل الفسوق ، من يحلف زوراً ولا يتقي ربه ؛ أو من يتخلّفون عن الجهاد في سبيل الله تعالى بتفضيل الأهل والمال والسَكَن وبدون عذر ؛ او الذين يسخرون من اهل الايمان المعوزين ؛ او من يماطل في التوبة ؛ او الزائغون عن الحقّ ؛ او اهل النفاق ــ الآيات : (التوبة / ١٠٨) و (التوبة / ٢٤ و ٨٠) و (الصف / ٥) و (المنافقون / ٦) .

وورد عن حجب الهدى عن أهل الخيانة بالكيد وعن اهل التكذيب ضلالاً أو كفراً وعن المسرفين الكذابين الآيات : (يوسف/٥٢) و (النمل / ٣٧) و (الزمر/٣) و (المؤمن/٢٨).

---

(١٩) قال صلى الله عليه وآله وسلم : « حبُّ الدنيا رأس كل خطيئة » ــ رواه البيهقي في شُعَب الايمان عن الحسن عليه السلام .

وهكذا وضع القرآن الكريم – جلّ مُنْزِلُهُ – من الدلالات ما فرّق به تعالى بين من اهتدى وبين اهل الضلال • فهو الفرقان الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه • وهذا هو اعجاز القرآن الكريم في استنباط معانيه ليصل المؤمن الى منازل أعلى فأعلى ما استمر على الطاعة والعمل والاستزادة بالشكر والذكر والتقوى والصبر الجميل (اي الصبر الذي يجمّله حُسن الظن بالله تعالى) والاستعانة به تعالى : « •• إنّه منْ يَتَّقِ ويَصْبِرْ فإنّ الله لا يُضيع اجر المحسنين[٢٠] » • ويبرز الفضلُ في أمر الله تعالى بالتأسّي بالرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم من أجْل البلوغ الى غاية التوحيد • فمن اقتفى أثَرَهُ فقد وضع نفسه في أهلية لوراثته : فإن كان اميراً اماماً فالعصمة النبوية فيه تكون بقدر اعتصامه بالكتاب والسنة النبوية الشريفة ، وان كان قاضياً فالعدل النبويّ فيه يكون بقدر اقتفائه اثر الرسول الكريم صلّى الله عليه وآله وسلم • وهكذا يرث مِن النبوّة مَنْ تأسّى بها على قَدَرِ حاله : فالقائد يرث الحِنْكَة العسكرية والمَلَكَةَ الحربية ؛ والمعلم يرث التربية السلوكية ؛ والكاتب يرث البلاغة والفصاحة ؛ والعامل يرث الصدق والدأب ؛ والعالِم يرث الفقه والعلم بالتفسير والدعوة والارشاد الى اليقين والاخلاص والزهد والتواضع والنصيحة • قال صلى الله عليه وآله وسلم : « العلماء وَرَثَةُ الانبياء[٢١] » •

---

(٢٠) يوسف / ٩٠ .

(٢١) رواه الترمذي وابن ماجة عن ابي الدرداء . واورد ابن عساكر عن ابن عباس قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم « اكرموا العلماء فانهم ورثة الانبياء » .

و « لا تجلسوا عند كل عالم إلاّ الى عالِم يدعوكم مِنْ خَمْسٍ الى خمسٍ : من الشكّ الى اليقين ؛ ومن الرياء الى الاخلاص ؛ ومن الرغبة الى الزهد ؛ ومن الكبر الى التواضع ومن العداوة الى النصيحة[٢٢] » • وهكذا تسري النبوةُ طاقةً دائمة من اجل توحيد عبادة الخالق جل علاه في كل اسم وكل صفة ما دام ذلك الاسم وتلك الصفة على خط الاقتداء • ومن الاخبار الطريفة أن أحد اهل الادب كان مع رفيق له في سفرٍ فرأيا جنازة لميت يعرفه ذلك الرفيق فسأله الاديب : هل هو حيّ أم ميت ؟! وكان قصده بذلك هل خلّف من يرثه أو علماً ينتفع به ؟ فالرسول الكريم صلّى الله عليه وآله وسلم ، إذْ مات فقد غيّب اللهُ تعالى جسده الطاهر ومنظره الشريف ولكنه تعالى أحياه سيرةً وعلماً وعدلاً وصدقاً ونصيحةً وزهداً وعفةً وما شئت من فضل الله العظيم عظيماً عليه وعلينا صلّى عليه وآله وسلم •

مما تقدم في معرفة اصناف البشر ومقومات الانسان ورقي المؤمن بانسانيته من اسفل سافلين الى عِلِّيِّيْن ، ومن الدلالات القرآنية والحكمةِ النبويّة المستمدة من آيات الله تعالى • يستطيع المؤمن الباحث عن الحق ان يميزه عن الباطل • فما حصل فيه شبهة فالعلاج اتقاؤها بتركها • وهكذا تتّضح عوامل الثبات الخالية من الكفر والفسوق والعصيان ، وتتضح عوامل الزيغ • فالمؤمن الصادق يرى في نفسه ميلاً للحق فيتبعه فيهتدي به • فان وجد في نفسه مؤشراً نحو الميل لاعلاء كلمة الله تعالى فهو على

(٢٢) رواه ابو نعيم في الحلية .

استقامة في فكرةٍ يُكَلّلُها عملٌ متفق معها . وان كان لديه مؤشر لميله نحو اعلاء امر غير امر الله تعالى ورسوله في قلبه فليلجأ الى الله تعالى ولا يصل الى اللجوء اليه إلا بالتقوى « ان اكرمكم عند الله اتقاكم إنّ الله عليم خبير »(٢٣) . وقال تعالى : « واما يَنْزَغَنَّكَ من الشيطانِ نزغٌ فاستعِذْ بالله انه سميعٌ عليمٌ . إنّ الذين اتّقَوْا إذا مَسَّهُم طائفٌ مِنَ الشيطانِ تذكّروا فاذا هُمْ مُبْصِرُونَ »(٢٤) . اما الذين يتهاونون في امور دينهم بتفضيل حُبِّ الدنيا فقد مسّهم فعلاً هذا الطائف من الشيطان فلم يرجعوا الى الشريعة اي لم يستعيذوا بالله تعالى ويلجأوا اليه فاستمروا خارج التقوى والعياذ بالله تعالى .

ان هذه العوامل ، مثلما تنطبق على الفرد ، تنطبق على الجماعة . فالله الغني تعالى لا يعبأ للكثرة الساحقة من الناس أو القلة الضئيلة منهم بل يعبأ للحق والباطل . فإن كثُر اهلُ الحق حَكَّمَ الله تعالى فيهم حُكمَه كرماً منه وإسعاداً لهم بوحدة الكلمة وتأليف القلوب على الحق لنصرته . وإنْ كثُر اهلُ الباطل حكّم الله تعالى فيهم حكم الجاهلية ببغيهم تَفْرِقةً وإشقاءً لهم : « واتّقوا فِتْنةً لا تُصِيبَنَّ الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا انَّ اللهَ شديدُ العقاب »(٢٥) . وقال تعالى : « قُلْ هو القادرُ على انْ يبعث عليكم عذاباً مِنْ فَوقِكم او

(٢٣) الحجرات / ١٣ .
(٢٤) الاعراف / ٢٠٠ و ٢٠١ .
(٢٥) الانفال / ٢٥ .

مِن تحتِ أرْجُلِكُم أو يَلْبِسَكُم شِيَعاً ويُذِيقَ بعضَكم بأسَ بعضٍ ، انْظُرْ كيف نُصَرِّفُ الآيات لعلّهم يفقهون »[٢٦] . إذاً فما هو العلاج لردّ التفرقة الى التوحّد والخلاف الى الاتفاق والنفور الى تأليف القلوب ؟

قال تعالى : « والّف بين قلوبهم . لو أنْفَقْتَ ما في الأرض جميعاً ما ألّفْتَ بينَ قلوبهم ولكنّ اللهَ ألّف بينهم . انه عزيزٌ حكيم »[٢٧] . ولنا في السلف الصالح مَثَلٌ لكي نجعل صلاحَ آخرِ هذه الامّةِ بما صلُح به اوّلها . فالمولى تعالى ينظر الى اهلية المؤمن لِتَقَبُّلِ الحقّ فإنْ وَجَدَهُ يذوبُ مع الحق بلا نزعة لمصلحة ذاتية أو رؤية النفس هداه الى معرفة موضع الخلاف كما يهتدي الطبيب لتشخيص العلة . وهم الذين قال تعالى عنهم : « ومِنَ الناسِ مَنْ يشري نفسه ابتغاء مرضاةِ الله ، والله رؤُف بالعباد[٢٨] » فيهتدون باذن الله الى التوجيه المناسب من الشريعة والتي لم يُتْرِكْ فيها شيىء بلا حلٍّ صحيح . قال تعالى « فهدى اللهُ الذينَ آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم[٢٩] » . أما الذين تحولُ انفُسُهم دون قبول الحق فقد قال تعالى فيهم « واذا قِيلَ له اتّقِ اللهَ اَخَذَتْهُ العِزّةُ بالاثم[٣٠] » اي

(٢٦) الانعام / ٦٥ .
(٢٧) الانفال / ٦٢ .
(٢٨) البقرة / ٢٠٧ .
(٢٩) البقرة / ٢١٣ .
(٣٠) البقرة / ٢٠٦ .

أنهم رأوا انفسهم اي اعتزوا بمعارضتهم للحق لإرضاءِ غُرُورِهِم الزائف • وهم اهل البِدَع المنكرة •

إذاً تتضح عوامل الثبات وترك الخلاف في الدين كما اتضحت عوامل الزيغ الذي يمنع الهدى • ويمكن ايرادها بشكل مفصّل ، ولكن يكفي التنويه عنها وايراد امثلةٍ لها من السَلَف الصالح ليكون تعزيزاً متفقاً مع دلالة صلاح آخر هذه الامة بما صلُح به أوّلُها •

ان الثبات على الحق هو نتيجة مقدّرة من الله تعالى لمن جعل نفسه وقفاً على الاسلام اي لمن جاهد لأعلاء كلمة الله تعالى « يثبِّتُ اللهُ الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويُضِلُّ اللهُ الظالمين ويفعل اللهُ ما يشاء »(*) • ومن عناصر هذا الثبات كما هو من عناصر النصر وقبول العمل أن يكون الجهادُ والعملُ للهِ تعالى لا لمكسب ذاتي في الشهرة أو التسلّط • وبمعنى مختصر أن يتحلّى المؤمن بالنزاهة وهي العفّة عن الدنيا • ففي هذه الحالة يتقبل المؤمن قول الحق والامر بالمعروف ويتقبل الرئاسة الراشدة التي ترفع راية الاسلام بالعفة والذوبان بالحق من أي شخص يتسنم هذا المنصب • فالمهم أن تكون الرايةُ مرفوعةً • وهذا ما اوضحه امير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فقد سأله قيس بن سعد بن عبادة وابن الكوا (بعد أن خطب الحسن وعمّار عليهما السلام ، قبل وقعة الجمل ، في اهل الكوفة فخرج اثنا عشر الفاً منها لنصرته وفيهم قيس وابن الكوا)

---

* ابراهيم / ٢٧ •

فقال قيس في سؤاله لامير المؤمنين عليه السلام : أخبرْنا عن مسيرك هذا • أوصيةٌ أوصاك بها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ام رأيٌ رايتَه ؟ فقال الامام عليه السلام : « اما واللهِ لئن كنتُ أوّلَ من صدّق رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلّم ، فلا اكون اولَ من كَذَب عليه • والله لأنْ يكونَ عهدٌ من رسولِ الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إليّ فلا • ولكن مامات رسول الله فجأةً ولا قُتِل قتلاً • ولقد مكث في مرضه أياماً ولياليَ كل ذلك يأتيه المؤذن فيؤذنه بالصلاة فيقول مُرُوا أبا بكر فَلْيُصَلِّ بالناس • ولقد تركني وهو يرى مكاني • وما كنتُ غائباً • ولو عَهِدَ اليّ شيئاً لَقُمْتُ به حتى أن امرأةً من نسائه عارضت في ذلك فقالت : إن ابا بكر رجلٌ رقيقٌ اذا قام مقامك لم يُسْمِعِ الناسَ • فلو أمرت عمرَ فليُصَلِّ بالناس • فقال « إنكُنّ صواحب يوسف » • فلما قُبِض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نظرنا فاذا رسول الله قد ولاّه امر ديننا فولّيناه أمر دنيانا فبايعتُه في المسلمين ووفّيتُ بَيْعَتَهُ ثم بايعتُ عمرَ وَوَفّيْتُ بَيْعَتَه ثم بايعتُ عثمانَ ووفّيتُ بيعته فَعَدا الناسُ عليه فقتلوه وانا معتزل عنهم (اي خارج المدينة) ثمّ ولّوني ، ولولا الخَشيةُ على الدين ما اجَبْتُهُمْ » • وهذه الرواية عن قيس رواها ابو نعيم واوردها الشريف محمد بن رسول الحسيني البرزنجي المدني في كتابه (الاشاعة لاشراط الساعة) في الصفحتين ١٤ و ١٥ من طبعته الاولى سنة ١٣٧٠هـ •

تعطينا سيرة الامام الحبيب امير المؤمنين علي بن ابي طالب سلام الله عليه ، صورة ناصعة للنزاهة . فانه لما رأى أبا بكر الصديق عليه السلام يرفع راية الاسلام بترشيح ومبايعة الصحابة الكرام وقد قال : « وُلّيْتُ عليكم ولستُ بخيركم » لم يقل له إذاً لِمَ رفعتها انت !؟ كما لم ينعزل في الصلاة بعيداً عن امامة الخليفة المُبَايَع بل بقي مع اخوانه يصلي وراء اخوانهم وهو موقن ان لا عُذْرَ له في ذلك طالما كانت راية الاسلام مرفوعةً بحقها ، وحقها الاسلام صرفاً بلا خلاف . كما ان معاوية بن ابي سفيان لو كان في رقيّ عقلية وعلميّة الامام عليّ عليه السلام لما فعل ما فعل بل جاءه مذعناً للحق في حال من التسليم ولسان حاله يقول « ستجدني ان شاء الله صابراً ولا أعصي لك امرا » . وكل ما يمكن قوله عن معاوية انه اجتهد ضمن حدود علميته . ولو توسّع الى حدود علمية الامام عليّ لما حصل ما حصل . والآن نذكر ارادة الله تعالى في خلق كليهما وامتحان المؤمنين بالظروف التي مرّت آنذاك . والغاية من هذه العبرة هي تبصرة المؤمنين بأن الرسالة التي حملتها النبوة المحمدية هي التوحيد وليست تمييز التوحيد ذاته من شخص معين عن ذات التوحيد من شخص آخر .

ولتكوين صورة ذهنية مختصرة للمجريات التاريخية التي حصلت نفترض ان جماعةً في مسجد جاءت لعبادة الله تعالى في توحيدٍ وذكر وشكر وطاعة وتطوع . فاذا سُمع من خارج المسجد اثنان أو اكثر في جدل حول تفضيل شخص على آخر في حمل راية التوحيد فهل من الصبر والبر ودوام العبادة ان يترك

المصلون الصلاة ليخرجوا الى اهل ذلك الجدل والخصام لينحاز هذا الى ذاك وذاك الى غيره فيتفرق جمعهم وهم عن صلاتهم ساهون ؟ فالصلاة في المسجد ذاك اذاً رمز للتوحيد ومعرفة الله تعالى كما ينبغي للتوحيد الذي قام الدين على أُسُسِهِ • والخروج من الصلاة ، قبل اداء حقها بالانشغال بالخصام والجدل، هو غفلة" عن الله وتوحيده تعالى بتفضيل البشر بعضهم على بعض•

اما التفضيل بحد ذاته فمن الله تعالى وليس هو المخيف فقد فضل الله تعالى الرسل بعضهم على بعض • بل المخيف هو الطعن من بعد التفضيل وحقيقته قسوة القلوب على اصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم بحيث يلعن آخِرُ هذه الامة أوّلَها وهذا من أشراط الساعة كما ورد في الاخبار الصحيحة ، حيث روى الترمذّي عن ابي هريرة ، في اخبارها ، حديثاً عن رسول الله صلّى عليه وآلهوسلم فيه عدةاشراط منها «اذاظهرت القينات (اي المغنيات) والمعازف وشُرِبَتْ الخمور ولَعَنَ آخرُ هذه الامةِ أوّلَها »• وفي التفضيل مع الطعن في المفضول غيبة" للاموات وافتراء بالتأويلات واتباع المتشابه من القرآن لتكفير بعضِ مَنْ شهدوا بدراً وشهد الله تعالى بصدقهم في الايمان حقّاً • اما الذين يريدون تفرقة صفوف المسلمين فقد نسوا كون اهل التوحيد ثابتين عليه ولا يختلفون على الاشخاص وان الاشخاص لم يكونوا الاّ عبيداً لله تعالى يرفع درجاتٍ من يشاء وفوقَ كلِّ ذي علمٍ عليم" • وان التوحيد لا يتغير سواء جاء به احد الانبياء أو غيره منهم كما سبق شرحه في الابواب السابقة وهذا الباب •

ومن نتائج الخصام على تفضيل الناس لبعضٍ البشر على غيرهم لمزيةٍ أو اكثر أن يخرج قومٌ على ما كان عليه السلف في الخلافة الراشدة من تماسك في الله تعالى وان يصلي المؤمن منفرداً عن الامام واخوانه المسلمين خلافاً للسيرة الراشدة الطيبة .

إذاً وجدنا من سيرة الخلفاء الراشدين (لاسيما من ختمهم الله تعالى به) مفتاحاً لصلاح الامة الآن بالتصدّي لعوامل التفرقة ونبذها والثبات على السمع والطاعة لأمر الله تعالى ما قام بينهم وما جرى على ايديهم . قال صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذر الغفاري رضي الله تعالى عنه « إسمعْ وأطعْ ولو لعبد مجدوع الانف[٣١] » . وهذا ما يعززه قولُه تعالى « يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم ، فإنْ تنازعْتُم في شيءٍ فردّوهُ الى الله والرسول إنْ كنتم تؤمنون باللهِ واليوم الآخرِ ، ذلكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلا[٣٢] » . وفي هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « على المسلم السمعُ والطاعةُ في ما أحبَّ او كرِه إلاّ ان يؤمر بمعصية فلا سمعَ ولا طاعة[٣٣] » . وتكون الطاعةُ بمبايعة المسلم لولي الامر الملتزم بالايمان والاسلام اي (منكم) . ولا يخلع المسلم يَدَهُ من هذه المبايعة ، بل يُنيب اليها في كل امرٍ أو نهي شرعيّيْن . كما قال

(٣١) رواه مسلم عن ابي ذر في البر والصلة .
(٣٢) النساء / ٥٩ .
(٣٣) متفق عليه .

صلى الله عليه وآله وسلم : « من خلع يداً من طاعةِ اللهِ تعالى لَقِيَ الله يوم القيامة ولا حُجّة له • ومن مات وليس في عنقه بَيْعة" ماتَ مِيتة الجاهلية[٣٤] » • فان كان ولي الأمر عالماً وقائماً بالأمر فلا يهم من يكون وممن هو ، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك : « اسمعوا واطيعوا وإن استُعمِل عليكم عبد حبشي" كأنّ رأسَه زبيبة" »[٣٥] •

ومن عوامل الثبات على الوحدة بلا تفرقة للصفوف ترك الركون الى الكافرين وترك اتخاذ بطانةٍ من غير المؤمنين ثم ارجاع التحكيم الى الشريعة والتوقف عن نقل الاشاعة بل رفعها الى أُولي الأمر فوراً وبذلك لا تنتشر الفتنة • « وإنْ طائفتانِ من المؤمنين اقْتَتَلُوا فأصلِحُوا بينهما • فإن بَغَت إحداهما على الأُخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيءَ الى أمرِ اللهِ • فإن فاءَت فاصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن اللهَ يُحبّ المُقسطين[٣٦] » •

ومن عوامل التماسك حسر الفساد الى ادنى حدٍّ بحيث لا تترك ثغرة لظاهرةٍ من ظواهرِه • وهذا يتم باتباع التوجيهات القرآنية والنبوية في سدّ الثغرات أمام ظواهر الفساد ما امكن ،

---

(٣٤) رواه مسلم .
(٣٥) رواه البخاري .
(٣٦) الحجرات / ٩ .

وبنشر الفضائل والتشجيع عليها واقناع الشباب خاصة بان طريق السعادة هو العصمة بالله • فاذا كان الأمر كذلك فالبشـــارات والنصر والعزة والسعادة في الدنيا والآخرة • والله يحب المحسنين•

وصلى الله على سيدنا محمد وآل سيدنا محمد وصحبـــه الطيبين وامته خير الامم وجنده المنصورين • والحمد لله تعالى اولاً وآخراً •

خاتمـــه

ها هو الاسلام : علمٌ بالتوحيد لا نصيب فيه لبشر إلاّ أن يكون اسوةً حسنة في العلم والعمل • ونبوّةٌ كفوءةٌ حملت رسالة التوحيد رحمةً للعالمين • وإمامةٌ تخلف النبوة متحلّيةً بالعصمة بالله العلي القدير في حدود الأمر والنهي • وعاقبة كل ذلك نصر وعز وفلاح في الدنيا والآخـرة •• ثم ايمان بعـدله وصفاته الحسنى تعالى وبمعادٍ الى كنَفِ رحمته ثم سـمعٌ وطاعةٌ للحِفاظ على كل هذه العظمة • فمن شاء أن يستقيم بالانابة والتوبة والثبات وإتّبَاعِ المعاصي بالاستغفار وبالحسنات مع ندم وعهد بالانقطاع الى الله تعالى فهنيئاً له • ومن أبى فقد تخلّى عن مقعد صدق في الجنة وليته كان ترابا إذ لابد لمن يفقد مقعده في الجنة أن يتبوّا مقعداً غـيره في النار • والله تعالى غافر الذنب وقابل التّوب شـديد العقاب ذو الطول لا اله الاّ هو العزيز الحكيم •

والحمد لله والصلاة والبركات والسلام على الرسول الكريم واولئك الاحباب الى يوم الدين •

تم بحمده تعالى في رجب سنة ١٤٠٨هـ الموافق لآذار ١٩٨٨

وأسأله تعالى القبول وحُسنَ العاقبة انه سميع مجيب

المصـــادر

١ ـ القرآن الكريم بتفاسير متعددة .

٢ ـ الصحاح في الحديث الشريف .

٣ ـ مواعظ وخطب دينية متنوعة .

المحتويات

الصفحة

خطبة الكتاب ٥

خلاصة لتعريف البحث واهميته
التوحيد والنبوة التي حملت رسالته والامامة
التي تصحح منهج السلوك نحو التوحيد

الباب الاول : التوحيد ١٣

حقائق التوحيد ومواجهة النفس الانسانية به
ومآل سلوكها نحوه وكيف تنجو من الشرك

الباب الثاني : النبوة ٣٣

النبوة كفاءة لحمل رسالة التوحيد قائمة من اجله
فما هي خصائص النبوة ؟ وما هو قدرها

الباب الثالث : الامامة والعصمة ٥٥

ضرورة الامامة وضرورة الاعتصام بحبل الله
تعالى فما هي عوامل العصمة ؟

الباب الرابع : المسلمون ٦٧

صورة نموذجية للمسلم والمسلمة يتضح فيها من
المزايا التي امتدحها الخالق تعالى ورسوله صلى
الله عليه وآله وسلم مبلغ الرضا الرباني عنها .

الباب الخامس : الثبات وعوامله والزيغ واسبابه ٩٣

ايضاح منطقي له دلالات قرآنية ومن الحديث والتأريخ

الخاتمة ١١٣

ABSTRACT

This book, in its first chapter, handles the outlines of the Unity of Allah Almighty and how can the believers profess in his unity and put their trust in him.

The qualifications of Apostle and the Message, sent by Allah Almighty for the sake of his unity, were discussed in the second chapter so that the reality of both indicates this glorious unity and makes the Apostle (blessed by Allah) a beautiful pattern of conduct.

In the third chapter, the major realities of graceful leadership in Muslim Community, were discussed. The factors that ever makes Imam and followers on right path with triumph were explained too.

To identify the real muslim, we may find out how the Qur'an and the Tradition commend the same. The fourth chapter deals with this realities.

Factors of how to stand firm with Islam and factors leading astray were explained in the fifth chapter as they are mentioned in different places in the glorious Qur'an.

A conclusion was made to remind Muslims of what is best for them.

Note : The author requests, for translation of this book into other languages, to let the translation be reviewed by head of any Islamic center in states other than Islamic states.

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ بغـداد
(٧٩٦) لسنة ١٩٨٨

دار الحرية للطباعة ـ بغـداد
١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م